
الصباح
عباس خاضر

الصَّحَاح

[illegible]

عباس خضر

مقدمة

هذه القصة .. قطاع من « سيرة الأميرة ذات الهمة » إحدى الشوامخ فى الأدب الشعبى العربى ، أو هى بناء جديد مبنى على أساس ذلك القطاع .

و « سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها الأمير عبد الوهاب والأمير أبو محمد البطال وعقبة شيخ الضلال وشومدرس المحتال » تقع فى سبعين جزءا ، أخرجت فى سبعة مجلدات كبيرة . و « الصحصاح » هو جد « ذات الهمة » التى سنخصها فيما بعد إن شاء الله بقصة أخرى .

والقصة فى أصلها ، وفى هذا البناء الجديد ، تركيب خيـــالى يمتزج بالتاريخ المعروف . أبطالها الرئيسيون من محض الخيـــال ، يلتقون بشخصيات تاريخية معروفة ،هى شخصيات ثانوية فى مجرى الحوادث . وقصة « الصحصاح » هذه تقع حوادثها فى زمن « عبد الملك بن مروان » وإن كانت تبدأ قبله بقليل من الزمن .

والأصل يشتمل على كثير مما لا يتفق مع الوقائع التاريخية ، وقد تصرفت فيه بحيث يستقيم الخيال مع الواقع التاريخى ، كما حرصت على تصحيح النظرة الإسلامية إلى علاقة المسلمين بالمسيحيين،وأهداف الكفاح الإسلامى العربى ضد أعداء العرب والمسلمين ، وهو فى الحقيقة ـ وطبقا لروح الإسلام ـ كفاح يرمى إلى ما نسميه الآن بالتعايش السلمى .

وقـــد عملت على إخراج القصة فى صـــورة تلائم ذوق العصر ، إذ تأملت فوجـــدت أن الذين كانوا يقرأون الملاحم الشعبية أو يسمعونها من المنشد على

« الربابة » قد انقرضوا أو كادوا ، وأن القارىء الحديث لا يستسيغ قراءتها كما هى وأن فيها « مادة خام » تصلح لأن تكون مصدر إلهام لأعمال أدبية وفنية جديدة ولأن يبنى منها الكاتب مثل هذا البناء الذى تطالعه فى هذه القصة ... مطابقا أو قريبا من فن القصة الحديث شكلا ومضمونا ، مع الحرص على بعض السمات والملامح الأصيلة التى تحفظ « نكهة » الأصل ..

وأقول فى اختصار وإجمال : إنى أردت بهذا العمل أن أخاطب أبناء عصرى بما يلائم أذواقهم واهتماماتهم .

وقد جرينا فى محاكاة فنون القصة الغربية إلى نهاية الشوط ، ووفقنا فى مواكبة الإنتاج القصصى العالمى ، ولكننا لم نضف إليه مايدل على شخصيتنا وابتكارنا فى أشكاله ، مع مالنا من تراث قصصى لايقل شأنا عن تراث الآخرين ... فينبغى أن نقف ولو قليلا لننظر فى هذا الجانب من تراثنا الأدبى ، عسى أن نجد فيه جذورا لنمو وإضافة ألوان جديدة من الإنتاج الأدبى ، ونستمد بذلك من العراقة أصالة ..

وقد بدأت العمل الأول - فى هذا المجال - بقصة « حمزة البهلوان » إذ أخرجت منها قصة « حمزة العرب » وسبق ذلك عمل مشابه فى مجال القصة القصيرة بكتابة « حواديت عربية » التى صدرت منها مجموعتان عن « دار المعارف »

بدأت ذلك مترددا - قبل التنفيذ - ولكن حسن الوقع لدى القارىء الحديث وما لقيته بصفة خاصة قصة « حمزة العرب » من إقبال ونجاح - حثنى على المضى فى هذا السبيل .

وإلى اللقاء فيما يأتى ، ومن الله التوفيق ؟

عباس خضر

— ١ —

« يابنى كلاب ، هاكم الأموال والأسلاب ، خذوا منها ماشئتم . أما هذه المهرة فقد تعلق قلبي بها ... »

قال ذلك « جندبة » فارس بنى كلاب . عقب المعركة التى قتل فيها خصمه العنيد « جابر » فقال واحد من بنى كلاب :

— والله ياأمير ، ماتصلح الا لك ،فلو فتشت فى جميع الأقاليم لم تجد لها مثيلا.

وقال آخر :

— لقد كانت تتوثب تحت جابر كأنها شعلة نار ، تثبت كالجبل ان أشار لها بالوقوف ، وأن همزها طارت الى الغيوم ، كأن راكبها يلتقط النجوم .

وتابع فى لهجة المتغزل .

— ضامرة الخواصر، مليحة الحوافر، واسعة المناخر، جميلة الباطن والظاهر، لها غرة مثل الهلال الزاهر .

وعلق رجل ثالث :

— صنعة الملك القادر .

وقال رابـــع :

— تربية العرب أصحاب المفاخر .

وقال « جندبة » :

— والله ياوجوه العرب انى من ساعة مارأيتها رق لها قلبي بمقدار ما قسا على صاحبها ... وماكان فى نيتى قتله ، وما طلبت الا أسره وأخذها منه ، ثم أطلقه ، ولكنه أصر على قتلى وبغى على ، فلم أجد بدا من مقابلة البغى بالبغى ، ومجازاة صاحبه بمثل ما كان يرمى اليه .

* * *

كان جندبة قد شغف بحب المهرة ، وكان اسمها « مزنة » ولم يكن فى خيـــول العرب أجود منها . كان الريح من جريها ، والرعد من صهيلها ، والصباح من غرتها ، والسواد الحالك من عينيها ، والشمس تشرق من بياض نواصيها .

تحدثت بها القوافل ، وشاع صيتها بين القبائل ، ووصفها الشعراء فى أشعارهم ، حتى وصل خبرها الى « الغطريف » ملك بنى طى ، فهام قلبه بها ، وطار نومه من أجلها ، فبذل المال الجزيل للعيارين الذين يتسللون الى مرابط الخيل ويخطفونها ، فلم يظفر أحـــد منهم الا بالعناء والخيبة ، لأن جندبة كان شديد الحرص عليها ، وكان يقيم حولها الحراس الذين لاينامون الليل .

ولما لم تنفع الأموال جعل الغطريف نصف مملكته لمن يأتيه بمزنة ... فهلك كثير من الناس فى المخاطرة لاقتناصها .

وازداد شغف الملك بالفرس ، وازدادت رغبته فى الحصول عليها ، الى حد بعيد ... الى حد أن بذل ابنته « سلمى » فريدة عصرها فى الحسن والجمال ... جمع الناس ونادى فيهم :

« يامعشر الأصحاب والخلان ، من كان فى ابنتى راغبا ، ولها طالبا ، فقد جعلت مزنة فرس جندبة بن الحارث صداقها ، بذلت الكريمة فى الكريمة ، وللناس فيما يعشقون مذاهب » .

فهمهم الرجال ، وزجر الأبطال ، وطمع فى العروس رجل شنيع الخلقة اسمه « جفال » ويلقب بالمحتال .

ولما بلغ سلمى أن جفال خرج فى طلب مزنة طمعا فى الزواج منها تحسرت وبكت وقالت : لابلغ أبى آماله فى مزنة ، لأنه يريد أن يزوجنى لهذا الشيطان المحتال الذى تمثل فى صورة انسان ذى أنف معوج ، وفك مائل ورائحة كريهة ، وانى أقسم بمن مرج البحرين وأنار القمرين لئن وصل جفال بالمهرة لأقتلن نفسى قبل أن أدخل عليه .

— ٢ —

ركب جفال ناقته ، وودع أهله وعشيرته ، وسار يقطع الفيافى والقفار ، حتى وصل إلى ديار بنى كلاب ، وأول ما لفت نظره هناك أربعون رجلاً مصلوبون على أربعين خشبة ... ولما سأل عن هذا المنظر قيل له : ما أحد من هؤلاء الأعيار متسلل جاء يريد مزنة فوقع فى هذه المحنة .

فزع جفال وشعر بالخوف على حياته ، ولكنه قال فى نفسه لابد من المخاطرة للحصول على سلمى .

انتحى ناحية بعيدة عن الأنظار ، ولبس مسحا أسود كان قد أعده ، وكشف رأسه ، وأرسل شعره الطويل على كتفيه ، ونفش لحيته ، وقوس ظهره ، ودخل الحى وهو يترنم بالأشعار والمواعظ ، حتى أثر فى الرجال والشباب وأبكى الشيوخ والنساء ، وتقدم الكثيرون إليه ، وتراموا عليه ، وقبلوا يديه ثم قدموا له الطعام فامتنع عن الأكل ، وقصد نحو الفلاة ، وكلما أعرض عنهم وهرب منهم ازدادوا رغبة فيه ومتابعة له .

وعلم جندبة بأمره ، فقصد إليه ، ولما سمع صوته الخاشع تأثر بوعظه وزخرف كلامه ، وقال له :

— أيها العبد الصالح ، الساعى فى المصالح ، أقسمت عليك بمن نزع من قلبك حب الدنيا ، وشغلك بالعبادة وذكر الله ، أن تبيت فى هذه الليلة عندنا وتأكل من طعامنا ، لتعود بركتك علينا ، ولعل الله يكفينا شر أنفسنا ويلهمنا الزود لآخرتنا .

قال جفال المحتال :

ــ أقسمت على بقسم عظيم ، سأبيت فى خيامكم وآكل من طعامكم ، ولكن على شرط .. ألا تقدموا إلى ألا ماتنبت الأرض فى رؤوس الجبال وبطون الأودية والتلال ، خوفا من مناقشة الحساب وشدة العذاب .

فقال له جندبة :

ــ ياسيدى ، نحن على حكمك ، ولك الخير والكرامة .

ثم جعل جفال يعظ جندبة ، وهذا يبكى لتأثره من الوعظ ، ثم أقبل جندبة على جفال يقول له :

ــ أيها الشيخ ، انى أسهر الليل من خوفى على مهرتى ، فقد طمع فيها ملوك العرب وقصدها متسللوهم من كل مكان ، فادع الله تعالى أن يحفظ هذ المهرة ويصونها من كل مكروه .

ــ أين أنت من اسم الله الأعظم الذى يحفظها ويمنع عنها كل سارق ، فلا تحتاج إلى قيود وأقفال . ؟ وأطرق جفال برهة ، ثم رفع رأسه وقال :

ــ أرنى هذه المهرة ، لأحصنها بالحى القيوم ، وأدعو فى أذنها بالإسم الأعظم .

فرح جندبه وقاد جفال إلى حيث الفرس ، فتقدم هذا منها ووضع يده عليها وهو يقول :

« أعيذ هذه المهرة بالواحد المنان ، من الشر فى حومة الميـدان ، ومن الطعن والطعان ، ومن التقاعس عند التقاء الفرسان ، ومن الدغل والمغل وانحراق الكفل ومن الخناق والسعال وأوجاع المفاصل ، ونهش العظم وعقر الظهر ، ومن أكل الريش والغصة بالحشيش ، اسم الله عليك عند مس اللجام وشد الحزام ، أعيذك أيتها المهرة بالبقرة وآل عمران ، والكهف والفرقان ، أعيذك من العاق والعرق بقل أعـــوذ برب الفلق ، أعيذك من الصدأ والصديد والسيف والحديد والرمح المديد والسادات والعبيد ، ومن العرب والعجم والقريب والبعيد ، وألف لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم » .

فرح جندبه واطمأن باله ، ووثق بجفال كل الثقة ، وأنزله في خيمته ، كي تحل بها بركته ...

وأقام جفال المحتال على هذه الحال ثلاثة أيام ، وهو يتحين الفرصة لكي يسرق مزنة ، وكان يقوم الليل ولايمل من الصلاة والقيام والقعود ويظهر الخشوع في الدعوات . وجندبة يرى ذلك ويقول في نفسه : أين كان هذا الشيخ من زمان ونحن نتعب أنفسنا بحراسة مزنة والسهر خوفا عليها ...

فلما كانت الليلة الرابعة جعل جفال يبكى فى صلاته ويتوجع فى دعواته ، فسأله جندبة عن حاله إذ رأى كثرة توجعه وبابباله . فقال له جفال :

— أكتم أمرى أيها الأمير ، لأنى رأيت فى المنام البشير النذير وهو يقول لى فى ليلة غد تفارق الدنيا وتصل إلى حضرة المولى ، وقد حزنت وبكيت أحر بكاء .

— الأعمار بيد الله ياسيدنا الشيخ .

— إننى لم أحزن لانقضاء أجلى ولم آسف على فوات عمرى .

— لماذا اذن تحزن وتبكى ؟

— أبكى للتأخير .. لأنى أحب لقاء الله ولا أريد الانتظار إلى الغد .

تأثر جندبة بذلك غاية التأثر وقال فى نفسه : لمثل هذا فليعمل العاملون . وغلب عليه النوم ، فقام إلى مضجعه واستغرق فى سبات عميق .

وقام جفال المحتال يتسلل إلى مربط « مزنة » وفك قيدها ، وكان الحراس قد ناموا لاطمئنانهم إلى أن الفرس قد حصنت باسم الله الأعظم . ولما رأوا من انشغال سيدهم بالشيخ العابد ..

وعلا جفال ظهر مزنة ، وأطلق لها العنان ، فسارت به تسابق الريح ، ولما قطعت مسافة طويلة تمهل فى سيره ، وقد تذكر سلمى لجعل ينشد الأشعار شوقا إليها ، ويمنى النفس بوصالها القريب

وبينما هو فى أحلامه ولذيذ خياله ، إذ سمع حوافر خيل تعدو وراءه والغبار يملأ الآفاق ، ورأى رجالا يقصدون إليه وعلى رأسهم جندبة يصيح به قف بها أيها الدجال المحتال .

ولما سمعت مزنة صهيل الخيل من ورائها ضربت الأرض بحوافرها . وجذبت عنانها من يد جفال فألقته على الأرض صريعا وداسته بأقدامها فأجهزت عليه ، وجرت تعدو ... فحاول بعض أتباع جندبة أن يدركها بفرسه ليعيدها ، فأشار له جندبة بالوقوف ، لأن مزنة لايلحقها لاحق ... وناداها كما تعود أن يفعل ، فلما سمعت صوته صهلت وحمحمت ، وعادت إليه كما يعود الطفل إلى أحضان أمه . فأمسك بها وهو يقبل غرتها ويمسح بيده على ناصيتها .

ودفنوا جثة جفال المحتال ، وعادوا إلى مضاربهم فى حى بنى كلاب .

* * *

أما الغطريف ملك بنى طى فإنه لما وصل إليه خبر جفال ، ومصرعه على الرمال وخيبته فى الحصول على مزنة ، جن جنونه ، ولكنه لم يستسلم لليأس من الحصول على الفرس التى إزداد تعلقه وهيامه بها مما يلاقيه فى سبيلها من صعوبات ومتاعب . وجمع مجلس مشورته من كبار قومه وعشيرته ، وشاورهم فى الأمر . فقال له شيخ كبير معروف بالعقل والحكمة :

— عندى رأى أشير به عليك ، وهو يجنبك المخاطر وسوء العواقب .

فقال الغطريف :

— قل ماتشاء .

قال الشيخ الحكيم :

— أيها الأمير ، أنت بذلت ابنتك سلمى لمن يأتيك بمزنة ، وربما أتى بالفرس رجل لاترتضيه سلمى بعلا لها ، أولا يكون كفئا لها ، فيكون فى ذلك الضرر والعار .

قال الغطريف وقد ضاق بكلام الرجل :

ــ وما العمل ؟ وماذا عندك من الرأى أيها الشيخ ؟

ــ عندى من الرأى أن أسير إلى بنى كلاب ، وأقابل أميرهم جندبة ، وأحدثه عن سلمى وماهى عليه من الجمال والكمال ، حتى يقع حبها فى قلبه ويطلب زواجها .

ــ ثم ماذا أيها الشيخ ؟

ــ اذا طلب يدها أقول له ان مهرها هو المهرة .

قال الغطريف وهو يفكر :

ــ قلت صوابا ، ولكن اذا لم يطلب سلمى فماذا يكون الحال ؟ ألا ينقص من قدرنا أن نخطبه فلا يقبل ؟ ألا يكون ذلك عارا علينا ؟

ــ ليس فى ذلك أى عار ، وعلى كل حال اذا لم تنجح هذه الطريقة فاسلك فى تحقيق أمنيتك ماتشاء .

كان الغطريف يريد أن يتعلق بأى أمل وأية وسيلة للحصول على مزنة ، فوافق على رأى الشيخ وجهزه بما يلزم للرحلة ، وبعث معه نفائس الهدايا وبعض الفرسان يمتطون جياد الخيل وعليهم ثياب من الديباج .

— ٣ —

سار الشيخ عوف (اسم الرجل) ومن معه الى قبيلة بنى كلاب . فاستقبله بعض أهلها ، وأنزلوه بضيافتهم على عادة العرب ، ثم سألوه :

— من أين أقبلت أيها الشيخ المليح ، صاحب اللسان الفصيح ؟

— من عند من يذكر فى سائر الأمم بالوفاء والكرم ، من عند حاتم عصره وعنترة دهره ، الغطريف بن مالك ، قاصدا إلى أميركم جندبة فى أمر يوثق العلاقة بين القبيلتين والصداقة بين الأميرين .

أجابوه قائلين :

— أهلا ومرحبا بالقادم الى الديار ، تلك بيوت الأمير جندبة ، ونحن معك ، وسنكون فى عونك .

ثم ساروا به الى جندبة وقدموه له . فاستقبله بالتحية والاكرام .

ثم قال الشيخ عوف لجندبة :

— أن الغطريف بن مالك الطائى قد خطبك ياجندبة لابنته ورآك كفؤا لكريمته وزوجا لعزيزته التى هى ظبية القناص ودرة الغواص .

فسر جندبة بذلك ، وسكت يستمع الى بقية كلام الشيخ الذى أطرق قليلا يعبث بلحيته ثم رفع رأسه وهو يقول :

ــ وهو ياأمير لايطلب لابنته مهرا غير شيء واحد ، هوعندك فى حوزتك .

ــ وما هذا الشيء ؟ قل أيها الشيخ وأوجز .

ــ يريد مزنة الكريمة ، مهر الدرة اليتيمة .

فلما سمع جنــــدبة كلام الشيخ اتقدت عيناه بالشرر حتى خاف سطوته جميع جلاسه وقال :

ــ والله لو طلب الغطريف جميع ما أملكه لهان على ، الا مزنة . ان ذلك لا يكون أبدا ، ولا يركب مزنة سواى وأنا فى الدنيا ، ولولا ماوجب علينا من حق ضيافتك وإكرامك لعاد عليك وبال ما تكلمت به وجئت من أجله .

سكت الشيخ برهة ثم قال :

ــ رب مال جلب لصاحبه الوبال .

ــ ماذا تقول يارجل ؟

ــ أأقول ولى الأمان ؟

ــ قــل .

ــ اعلم ياأمير أن الغطريف عازم على المسير اليكم فى فرسان بنى طى ، وقد جئت رسول سلام ، حتى لايقع بينكم صدام .

فصاح به جندبة :

ــ اسكت أيها الشيخ ولاتزد حرفا ، فمن يكون الغطريف ومن هم بنوطى حتى يهجموا على بنى كلاب ؟

* * *

رجع الشيخ عوف خائبا وأبلغ الغطريف ما كان من جندبة فلما سمع الغطريف ذلك الكلام صار الضياء فى عينيه كالظلام ، ثم انه صاح فى بنى طى أن يستعدوا للحرب والقتال ، ثم توعد وقال انه لابد أن يجعل بنى كلاب طعاما للذئاب ...

ولكن « ميمون » لم يدعه يكمل كلامه ... وكان ميمون عبدا شجاعا فصيح اللسان ، وكان الى ذلك من المتسللين لصوص الخيل ، ومن المشغوفين بالنساء ، قال له :

ـــ قد سمعت يامولاى أنك بذلت ابنتك لمن يأتيك بمزنة .

قال الغطريف :

ـــ ولو كنت أنت ياميمون ... ولك معها من المال والجمال ماتريد ، وأرفعك إلى مرتبة الأبطال والفرسان .

ـــ أريد منك يامولاى الآن ثيابا فاخرة وفرسا من جياد الخيل .

* * *

لبس ميمون الحلة التى أهداها اليه الغطريف وركب الجواد وسار يقصد حى بنى كلاب وهـــو ينظم ويرتب فى مدحهم القصائد والأشعار ويجيلها ، فى نفسه ويعدل فيها . فقد عزم على أن يقبل عليهم بصفته شاعرا من شعراء العرب .

كان جندبة فى خارج الحى مع نفر من قومه عندما أقبل عليهم ميمون الذى بادرهم قائلا :

ـــ حيـــاكم الله بالتحيات ، وخصكم بالسلام ، وقضى لدولتكم بالدوام ولأعدائكم بالذل والإرغام ، وأسبل عليكم سحائب الإنعام .

ثم اتجه الى جندبة وجعل ينشد فى مدحه الأشعار ، ولما فرغ من كلامه ونظمه شكره الجميع وأثنوا عليه ، إلا جندبة ... فانه قال لهم : أن هذا الرجل ماهو الا محتال يريد أن يسرق مزنة . والتفت اليه قائلا :

ـــ أتظن أنى أخدع بهذيانك أو تجوز على شقشقة لسانك ؟

وصاح فى رجاله : خذوه ...

فتقدم أحد مقدمى القوم من جندبة وقال له .

ــ ما هذا ؟ كل الناس عندك قد أصبحوا سراق خيل ، إنك بذلك تجر علينا المذمة ، ولا بد أن يشيع عنا فى سائر الأحياء أننا نهين الشعراء ونمنع الإكرام عن الطراق والقصاد .

وشجع هذا الكلام ميمون ، فقال :

ــ ياسادات العرب وأهل الفضل والأدب ، هل سمعتم أن مادحا أتى الى كرام مثلكم ومدحهم بالأشعار ، فعاملوه مثل هذه المعاملة ؟ اذا كان ذنبي أنى مدحتكم فهيا عجلوا بقتلى ويتموا أولادى الصغار الذين لن يجدوا من يأتيهم بالقوت بعدى .

ثم جعل يبكي ويقول : ياليت السباع أكلتنى ولا يقال أن قبيلة بنى كلاب قتلتنى .

وتأثر له بنو كلاب ، ووجهوا العتاب إلى جندبة ، فقال لهم : والله لقد خدعكم كلام هذا العبد ، وأن التجارب قد علمتنى وجعلتنى أميل إلى سوء الظن ، وما حادث الشيخ المحتال ببعيد . ولاينبغى أن يلومنى أحـــد منكم : أن أخذت حذرى على مالى وروحى ، ولن يقتلنى إلا الذى يأخذ منى هذه المهرة ..

ثم أقبل على ميمون وقال له :

ــ والله إن قلبى حدثنى عنك بالغدر ، وأنا أريد أن أقيدك مع مزنة التى هى سبب هذه الفعلة . وأمر بقيدين ، فأحضروا له ماطلب ، فقيد مزنة بقيد ، وقيد ميمون بالقيد الثانى وربطه بقيد مزنة ، ووكل به الحراس ومضى إلى فراشه . وكان قد مضى جانب من الليل ، ونام الجميع فى مضاربهم وخيامهم .

أما ميمون فقد أقبل على الحراس الموكلين به ، وجعل يحادثهم ، وينشد لهم الأشعار ، ويحكى لهم عجائب القصص والحكايات ، حتى أنسوا إليه وأحسنوا الظن به ، إذ قالوا والله ماهذا الرجل إلا شاعر حاز جميع الفضائل ، وأن أميرنا جندبة قد ظلمه وأساء إليه .

ونام الحراس على حكايات ميمون العجيبة ، فما كان منه الا أن انتهز الفرصة واستعد للعمل ... عالج قيده فعسر عليه ، فأخرج خنجرا كان يخفيه تحت ثيابه ، وجعل يقطع به القيد ، ولسرعته وشدة ارتباكه جرح رجله جرحا بليغا ، فنزف منه الدم ، ولكنه لم يعبأ به ، وقطع كذلك قيد مزنة ، ولما رأى الدم ينزف منه قطع قطعة من عمامته ولفها على رجله ، وقفز على ظهر الفرس وخرج بها من الحى ، ثم لكزها فطارت به بين السماء والأرض، وسارت فى البيداء وكأنها القضاء المنقض .

— ٤ —

وصل ميمون إلى بنى طى ، واقتحم المضارب والبيوت ، وبلغ خبر وصوله إلى الغطريف ، واستقبله الغطريف بالإكرام ، وفرح بعزنة غاية الفرح ، وقبلها بين عينيها ، ووضع فى عنقها قلادة من أغلى الجواهر ثم قال لميمون :

— ياميمون ، وحق من لاتراه العيون ، ولايلحقه ريب المنون ، لاكانت سلمى إلا زوجتك ، وماهى من الآن إلا قرينتك ، وإنى قد قبلت صداقها عزنة ، فأنت لها بعل ، وهى لك أهل .

وقالت سلمى لأبيها :

— ياأبت ، أما تستحى من العار ، أن تزوجنى بالعبيد وتدع الأمراء والأبطال الصناديد ؟ فقال لها الغطريف :

— يابنية ، أما قولك بأنه عبد فإنه من أولاد آدم ، والمرأة لا تكون لزوجها إلا طائعة ، فكونى له سامعة .

وكان ميمون قد هزل جسمه وضعفت قواه من نزف الدم ، فلما دخل على سلمى تهاوى من شــدة الضعف والإعياء وسقط على الأرض ، ثم شهق شهقة خرجت روحه فيها .

* * *

وأما ما كان من أمر جندبة فإنه لما أصبح الصباح أتى إلى المضرب الذى قيد فيه ميمون مع مزنه فلم يجده ، ولم يجدها .. فطار صوابه وصاح :

النجدة يابنى كلاب ..

وركبت العرب على صهوات الخيل ، وساروا النهار والليل ، وتفرقوا فى كل مكان . وأرسل جندبة « النجابة » يقتفون الآثار ويبحثون عن مصير مزنة . وماهى الا أيام حتى عاد « النجابة » يؤكدون أن الفرس عند الغطريف .

نادى جندبة فى بنى كلاب بالدعوة الى قتال بنى طى لانقاذ مزنة من يد ملكهم الغطريف .

وكان لبنى طى فى بنى كلاب عيون وجواسيس تأتيهم بالأخبار حينا بعد حين فلما علموا خروج جندبة ومن معه الى الحرب سبقوا الى الغطريف وأخبروه . فنادى الغطريف فى بنى طى ، وأمرهم بالمسير وهو يقول : ان أرذل الرجال من تدوس الأعداء دياره وتقاتله فى بلاده ، فثارت الرجال وساروا نحـــو بنى كلاب ، وكان الملتقى عـــلى واد يسمى وادى الجندب . فلما وقعت العين على العين تصايح أبطال الطائفتين ، وحان الحين ، وزعق على رؤوسهم غراب البين ، وعملت الصوارم فى الفريقين ، وتصادم الفتيان ، واشتد الضرب والطعان .

قاتل جندبة ومن معه وصبر ، وتغيرت الألوان وفسدت الصور ، وظهـــر الغطريف على ظهر مزنة وعليه درع أصفر لا تنفذ فيه الإبر ، وفى يده صارم من صنع سمهر ، فصال على جندبة وزمجر ، فلما رآه جندبة على مهرته لم يجد صبراً دون أن يقفز اليه ... وناداه :

— يامن فجر وغدر ، أنت ما أخذت مزنة بقتال ولانزال ، بل بحيلة محتال وهذا من سوء الفعال ودنىء الخصال .

فأجابه الغطريف :

— أتعيرنى بالخداع وهو من أبواب الحرب والنزاع ؟

— لم يكن بيننا ياغطريف حرب حينما اعتديت بالسرقة والنهب .

وحمل كل منهما على الآخر ، وتسابقا فى حومة الميدان ، وتعجبت من قتالهما الفرسان . واختلفت بينهما طعنتان ، كانت الأولى من جندبة سددها الى الغطريف وهو يرمق « مزنة » محاذرا أن يصيبها بسوء ، ولكن الغطريف مال الى جنبه فلم تصبه الطعنة ، وانتهز الغطريف فرصة انشغال جندبة بالنظر الى « مزنة » فسدد اليه طعنة وقعت فى فخذه ونفذت الى جنب الحصان ، وأحس الجواد بالطعنة فوقع بفارسه .

- ٥ -

عاد بنو كلاب الى مضاربهم مهزومين ، وقد حملوا فارسهم « جندبة » جريح الجسم مكلوم الفؤاد . ثم عولج جرحه ، ولكنه لم يعد يستطيع المشى الا متوكئا على عصاه . ضعف وانفض عنه رجاله ، وقل قدره فى أعين قومه . ولما صار الى هذه الحال دعا اليه أخاه « عطافا » وقال له :

— يا أخى . أنى قد صرت الى ما ترانى عليه ، والإمارة تحتاج الى المال والرجال والنشاط ، وقد فقدت هذا كله ، ولم يعد يطيب لى ركوب بعد فقد مزنة . وللأهل والعشيرة على حق لا أضيعه ، وأنت أهل لصيانته . لهذا رأيت أن تكون الأمير علينا والمطاع فينا .

ثم دعا وجوه القبيلة وكبارها ، وأفضى اليهم بذلك ، فاستحسنوه ، وخاطبوا عطافا بالإمارة .

وعكف جندبة فى بيت منعزل ، ولبس الخشن من الثياب ، واشتدت عليه الآلام ، ومكث يعانى الأمراض والعلل حتى وافاه الأجل المحتوم .

* * *

كانت زوجة جندبة حاملا ، ولم يترك لها زوجها غير البؤس والحرمان ، فلجأت الى زوجة عطاف التى أكرمتها ، وشملها عطاف برعايته . ثم وضعت مولودا

ذكرا فى اليوم الذى وضعت فيه زوجة عطاف مولودة أنثى سمى الولد « الصحصاح » وسميت البنت « ليلى » .

كان الصحصاح أحسن الصبيان ، وكانت ليلى أجمل البنات ، كان ذا وجه صبيح ولسان فصيح ، حسن الشمائل ثابت القلب لايخشى شيئا ولا يهاب أحدا ، ونالت ليلى من صفات الجمال ماتحسدها عليه كل أنثى ، قد ممشوق وخصر نحيل ووجه كالقمر تزيده الابتسامة الحلوة اشراقا وملاحة ، وقد أضفت عليها سن الخامسة عشرة ما أسرت به القلوب ، وخاصة قلب الصحصاح الذى كان يكتم هواه ، فان بدا منه شىء فانه لايبلغ حد الإفصاح .

حتى كان عصر يوم من أيام الربيع ، طاب هواؤه ، ورق نسيمه ، فخرجت ليلى مع أترابها من فتيات الحى يتنزهن عند الغدير واتفق أن كان الصحصاح عائدا من الصيد ، فرآهن هناك ، فعرج عليهن ورشقته ليلى بسهم من كنانة جفونها . وجاذبها الحديث وتشاغل باقى البنات عنهما خجلات من الصحصاح .

وراق للصحصاح منظر الزهر حول الغدير ، وهو بجوار أحب إنسان لديه ، فهاج فؤاده ، وباح بمكنونه فى أبيات من الشعر ، ترنم بها ، وكأنه غائب عن الوجود

خجلت ليلى واستحت من أترابها اللائى سمعن ما قاله الصحصاح فيها من الغزل وقالت له :

ــ أهكذا تفضحنى بشعرك ؟

وتركته مشدوها لايدرى ماذا يقول وماذا يفعل .

وانتشر الهمس ، وشاع الحديث ... ووصلت أطراف منه إلى عطاف ، فدعا اليه زوجته وقال لها :

ــ هذا الصحصاح قد بلغ مبلغ الرجال ، وكذلك ابنتك ليلى قد بلغت مبلغ

النساء ، وقد ألفها وألفته منذصغرهما ، وأرى أنه قد حان وقت التفريق بينهمـــا .

قالت الأم وكانت ابنتها قد حكت لها ما كان من أمر الصحصاح وشعره يوم الغـــدير :

ــ ان ماتراه هو عين الصواب .

* * *

دخل الصحصاح على أمه حزينا شارد اللب ، ولما سألته عما يشغل باله ، حكى لها ماقالته له زوجة عمه ، إذ طلبت اليه أن يكف عن لقاء ليلى .

قالت الأم فى مزيج من الحنان والتأنيب :

ــ ياولدى ، لقد جنيت علينا بشعرك الذى قلته عند الغدير ، كنا نعيش فى نعمتهم ، فما لى بعد اليوم إلا الطحن بالرحى حتى نحصل على ما نقتات به

ــ الست من بنى كلاب ، وعطاف عمى ، وأبى جندبة ؟

ــ ولكنك يابنى فقير يتيم ، وعمك قد رباك ورعاك فكيف تمد عينك إلى ابنته وتشيع فى الناس أمر غرامك بها ؟ ألا تعلم أن شعرك فيها يجعل لها حديثاً بين العرب ، ويسىء سمعتها ويمنع خطابها ؟ رفع الصحصاح رأسه وقال غاضبا :

ــ كيف تقولين ذلك يا أماه ؟ أى خطاب يمتنعون عنها أو يجيئون اليها ؟ إننى أولى بها من أى كان ... فهى ابنة عمى وأصلها أصلى ؟

ــ ولكنك فقير ياصحصاح .

ــ ليس الفقر عيبا ، وان الذى سلب منا الغنى فيما سلف قادر أن يجود علينا ويعيد الينا عزنا .

قالت الأم محذرة :

ـ ثكلتك أمك . والله ان وصل كلامك هذا إلى الأمير عطاف فلن يبق عليك ويكون ذلك سببا فى تشريدك ... انظر إلى حالك واشغل نفسك بما يجدى عليـــك .

صرخ الصحصاح :

ـ النار فى أحشائى ... أقلى كلامك ولا تزيدى همى وعذابى .

ـ دع نارك وهواك وغرامك ، وفكر فى قوتى وقوتك . ان لم يأتنا اليوم من بيت عمك شىء نأكله فسنبيت الليلة بلا عشاء ؟

- ٦ -

خرج الصحصاح هائما على وجهه لايدرى أين يقصد ولاماذا يفعل ، كان يفكر فى ليلى وكيف حرم من لقائها ، وانتقل تفكيره إلى المال وكيف يحصل عليه ليستقل عن عمه ، ولا يكون فى حاجة اليه ، إنه ابن جندبة فارس بنى كلاب ، ولكنه فقير يتيم ... ولكن كيف يكون يتيما من بلغ مبلغ الرجال ؟ أما المال ... فهو المشكلة ، وأهم مافى المشكلة مهر ليلى ... لابد أن يقدم لها مايقنع عمه ، واسودت الدنيا فى وجهه اذ تنبه على أن حاله — كما قالت أمه — كحال من يسعى إلى الصعود إلى السماء ليتناول الكواكب ... أمه الآن ... لعلها ذهبت إلى بيت عمه لتأخذ حاجتها من الطعام والشراب ... وستلتقى هناك بليلى ... هل تسأل عنه ليلى ؟ وماذا ستقول لها أمه ؟

ووجد الصحصاح نفسه — دون أن يقصد — قريبا من بيت عمه ... هل يدخل ؟ لا ، ليس هذا من الصواب ، فليبعد إذن قبل أن يراه أحد ... لابد أن يبعد .

وعاد إلى أمه يقول :

— أماه ، هل بقى عندك شىء من مضارب أبى حتى نعتزل به عن هذه المضارب؟

— مضرب قديم ... هو كل ماترك لنا .

— وأين هـــو ؟

— انه وديعة عند مازن بن فهر الكلابى .

— ائتنى به حتى أضربه فى آخر البيوت مع الفقراء والمساكين .

* * *

قال الصحصاح فى نفسه : إلى متى أظل فى هذا الذل والفقر لا أفعل شيئاً ولا حيلة لى فى لقاء ليلى ؟ وحتى لو لقيتها فما أنا ؟ غلام يتيم فقير ، هذا القميص القصير الذى ألبسه كما يلبس مثله الأيتام ... لم يفارق جسدى منذ عام ... ولكن ألست ابن عمها ؟ نعم ولكنى فقير ... فقير ... اذن لا عيب بى إلا فقرى . لماذا لا أخرج من أرض بنى كلاب وأرحل عنهم إلى أرض الله الواسعة ، ولكن مالى فرس أركبه ، ولا ثوب فاخر ألبسه ، ولا مال أستعين به .

وتذكر ما قالته امرأة من بنى كلاب ، وقد رثت لحاله : أين عينا جندبة ليرى ولده على هذا الحال ؟ لطالما أكرم الضيفان وقدم الجفان ، ثم زال ملكه وانقرض كأنه ما كان .

جندبة أبوه قتله الغطريف أمير بنى طى وأخذ فرسه « مزنة » ... مضارب بنى طى على مسيرة يوم ، وماذا عساك أن تصنع للغطريف أيها اليتيم اللطيم ... ؟ لا ، لم أعد يتيما ، لقد بلغت ثمانية عشر عاما . انما أريد فرسا وسيفا .

تفقدته أمه بعد العشاء فلم تجده ، وبحثت عنه دون فائدة ، وانتظرته ساهرة حتى الصباح ، وذهبت إلى بيت عمه عسى أن يكون قد مضى إلى هناك ، وقعدت تنشج وتقول :

— واوحشتاه لليتيم الغريب ... أين أنت يا ولدى يا بقية الكرام يا مؤنسى بين الأنام ... واقتربت منها ليلى تواسيها وهى تشعر بالأسى مثلها :

— صبرا يا أماه ... سيعود الصحصاح ، قلبى يحدثنى بأنه سيعود على أحسن حال .

— قلبك يا ابنتى ؟

— نعم قلبى يا أماه .

ثم واصلت فى همس .

— إن بى يا أماه مثل ما به . . عندى له من المحبة وعهد الصبا أكثر مما عنده ، ولولا عثرة لسانه ما منعنى أبى عنه . .

خفف حديث ليلى عن أم الصحصاح بعض ما تجد من فراقه ، ولكنها لم تعد تأوى إلى بيتها إلا نادراً ، وصارت تقضى معظم الوقت عند قبر زوجها جندبة . .

وأما ما كان من أمر الصحصاح فإنه لما خرج لم يدر إلى أى مكان يسلك ، فجعل يسير على غير هدى ، حتى وجد نفسه فى أرض منبسطة مليحة الجنبات فيها غدير ماء على حوافيه أشجار وأزهار ، فنزل يستريح ، وأخرج ما بقى معه من الزاد ، وأكل وهو مقروح الفؤاد ، وشرب من ماء الغدير ، وجعل يسرح الطرف فيما حوله من المناظر ، فشعر ببعض الراحة وبعض الاطمئنان ، فدعا الله قائلا : بلغنى يا إلهى كل ما أريد ، وسهل على كل صعب شديد ، وارزقنى مالا حلالا أعود به إلى أهلى وأجمع بهم شملى .

ثم انبطح على وجهه وجعل ينكت الأرض بأصبعه وهو يفكر . . وإذا هو يسمع وقع حوافر على بعد ، فالتفت ، فإذافارس مقبل نحوه على جواد قد أرخى له العنان ، فاستوى الصحصاح جالسا ، ولم تمض لحظة حتى كان الفارس أمامه يلقى عليه السلام ، فرد عليه السلام ، ونظر إليه فرأى جسمه مثخنا بالجراح تسيل الدماء من نواحيه المختلفة .

— تلقنى بيديك يا فتى العرب واطرحنى على الأرض طرحا خفيفا .

قال الفارس ذلك وهو يهوى على ظهر الحصان ، فنهض إليه الصحصاح وفعل ما طلب منه ، ولم يرد أن يرهق الرجل بالسؤال والكلام ، ولكن الرجل تابع كلامه المتقطع :

— أربط لى يا ولدى جراحى واسقنى شربة من الماء .

وبعد أن شرب الرجل وأخذ نفسه ، لاحظ أن الصحصاح يتأمل الحصان معجبا به ، فقال له :

— إن سلمت يا فتى العرب جازيتك على معروفك ، وإن مت فالحصان وما معى لك . هذا الحصان لا يوجد مثله . إنه أسرع من البرق ، يسبق الطرف ، ويحار فيه الوصف .

— هلا استرحت قليلا يا عم ، فأنت مرهق متعب مصاب بجراح كثيرة ؟

— إنى أجد الراحة فى الحديث إليك يا فتى ، ولهذا سأفضى إليك بحقيقة أمرى ، والصدق خير الكلام ، إننى رجل محتال سراق خيل . . قضيت عمرى أتسلل إلى مرابطها فى ظلام الليل وأطير بها . . ولو كان الحصان بين الأجفان أو ضمت إليه أحشاء إنسان لسلبته أسرع من البرق اليمان ... أنا القناص بن وثاب ، سمعت بهذا الحصان الذى تراه ، واسمه الشاهق ويلقب باللاحق ، وصاحبه يفخر به على جميع العرب ، وهو عنده عزيز مصان ، فخرجت طامعا فى الحصول عليه . وسرت إلى القوم ، فأقمت عندهم يوما بعد يوم ، إلى أن وجدت الفرصة لاقتناصه . علوت ظهره ، وأخرجت من مخلاتى سوطا وضربته به ، فطار بى ... وما قطعت شوطا فى الوادى حتى رأيت القوم يلاحقوننى على ظهور الخيل وفى أيديهم السيوف والحراب ، وأصابتنى حرابهم وسهامهم وأنا على ظهره يمرق بى كأنه السهم الخارق ، وكدت أسقط من ألم جراحى لولا أنى انبطحت على ظهر الحصان وطوقت عنقه بيدى ، وأطلقت له العنان . ومكثت على هذه الحال ثلاثة أيام ، حتى وصلت إلى هذا المكان ولكل أجل كتاب .

نهض الصحصاح فى الصباح فوجد الرجل قد فارق الحياة ، وبعد أن واراه التراب ركب جواده وأخذ سلاحه ، وسار يفكر فى همومه ، ويقول فى نفسه أنه ما صار إلى حال الفقر واليتم والمذلة إلا لقتل والده جندبة على يد الغطريف ملك بنى طى ، وتذكر العداوة الموروثة بين قومه بنى كلاب وبنى طى بسبب تلك الواقعة وما أعقبها من غارات وحروب بين القبيلتين .

— ٧ —

وجد الصحصاح نفسه يتجه الى حى بنى طى . أشرف على بطاح واسعة ، بها مضارب وعيون ماء ، فاتجه الى ناحية بعيدة عن الحى ، فرأى جمالا كثيرة وعبيداً يرعونها ، فحمل على بعض الجمال يريد أن يسوقها أمامه ، فثار العبيد لدفعه عنها ، وفى مقدمتهم عبد ضخم مثل الفيل تقدم اليه وقال :

ـــ انك لابد قد فقدت عقلك أيها الغلام ... أتعرف لمن هذه الإبل التى تغير عليها وحدك ؟ دع الجمال وأمض فى سبيلك والا سقيتك كأس الحمام .

وتقدم العبد من الصحصاح يريد الفتك به لما رآه مصرا على سوق الابل . فلم يجبه الصحصاح إلا بضربة من سيفه أطارت رأسه عن جسده ، وصاح فى الباقين : سوقوا الجمال أمامى ، والا ألحقتكم به ... فخافوا منه وأطاعوه ،

وبينما هم سائرون اذا غبار كثيف يثور من خلفهم ثم ينكشف عن عشرين فارسا فى مقدمتهم فارس كأنه أسد عابس ، فلما دنا من الصحصاح ناداه :

ـــ قف مكانك أيها الغلام المغرور ، أمثلك يغير علينا وينهب أموالنا ؟ والله ماظننتك الا جمعا كبيرا ، ومادمت أنت وحـــدك فانج بنفسك قبل أن تسكن رمسك ...

التفت إليه الصحصاح وجرد سيفه قائلا :

ـــ هيا إلى القتال إن كان فيك ما يرد عن نفسك ومالك .

وكان الفارس هو الغطريف الطائى .. فلما سمع كلام الصحصاح نظر إلى وجهه ـ

وكان ملثما ــ يلوح من تحت اللثام وسيما ناضرا ، فظنه فتاة اسمها زينب من بنى عدى كان الغطريف يهواها ، وكانت ذات شجاعة واقتدار على الرجال ، كما كانت ذات حسن وجمال ، وقد أعلنت فى العرب أنها لن تتزوج إلا من يهزمها فى ميدان القتال . وكان الغطريف من خطابها ، ولكنه أنف أن يقاتل إمرأة .

نادى الغطريف :

ــ يازينب أميطى اللثام ودعى الضرب بالحسام ، لقـــد علمت أنك جئت تطلعينى على طرف من شجاعتك وبراعتك ، فأنت على الرحب والسعة والأمن والدعة .

أجابه الصحصاح :

ــ ويلك ياكلب العرب .. تترك الطعن والضراب وتعدل الى حديث زينب والرباب .

رأى الغطريف أن ظنه قد خاب وأنه أمام فارس غلاب، فصاح فى أحد فرسانه: أبرز الى هذا الفتى المغرور ، وائتنى برأسه على الفور .

فبرز اليه ذلك الفارس وأخذ يطاعنه ، وعاجله الصحصاح بضربة من سيفه أسقطت رأسه عن عنقه .

وبرز اليه فارس آخر فجندله . وكذلك فعل بالثالث ، فحمل عليه بقية الفرسان فصال فيهم وجال وقتل منهم من قتل.وخشى بأسه الآخرون فتراجعوا عن القتال .

قال الغطريف وقد هاله مارأى :

ــ ياصبى وهبتك نفسك ودم أصحابى ، فخذ من المال ماشئت وانج بنفسك .

قال الصحصاح ساخرا :

ــ لاعدمت هذه الهمة . دافع عن نفسك ان كنت تستطيع .

اشتد غضب الغطريف وقال له :

ــ ويلك . لو عرفتنى ما نطقت بهذا الكلام ... أنا الغطريف سيد بنى طى .

صاح الصحصاح فرحا :

ــ الحمد لله ... وقعت فى يدى ...

ــ ويحك ... من تكون ؟

ــ أنا الصحصاح بن جندبة الكلابى .

ونظر الصحصاح الى فرس الغطريف . وقال له :

ــ بالله عليك ياغطريف ... هــــذه الفرس ... أليست « مزنة » التى كانت سبب اليتم والمحنة .

ــ انها هى مزنة ، وهى عندى منذ عشرين سنة ، ماتغيرت صفاتها الحسنة .

ــ ياسيد بنى طى ... ماأطال الله عمرها الا ليردها على أهلها .

وتصادم الاثنان ، كأنها جبــــلان ، واختلفت بينهما ضربتان ، كان السابق الغطريف ، فتفادى الصحصاح ضربته ، وسدد الرمح الى صدره ، فنفذ الى ظهره ، فسقط الغطريف الى الأرض مقضيا عليه .

* * *

كانت العبيد تسوق الابل أمام الصحصاح وهو يتبعهم راكبا فرس أبيه « مزنة » حتى أشرف على مضارب قومه بنى كلاب ، وقصد بيته . وتلقته أمة وهى تبكى من شدة الفرح ، وصهلت « مزنة » عندما رأت أم الصحصاح ، فوقع صهيلها على سمع الأم كأحلى نغم ... ودهشت عندما تبينت الفرس وصاحت :

ــ هذه مزنة ... أين عثرت عليها ياولدى ؟

ــ أخذتها من الغطريف بعد أن أرديته ...

وقص عليها ما وقـــع بينه وبين الغطريف ، وهى تشعر كأنها فى حلم بهيج ، فكانت تحتضن الصحصاح وتقبله ، ثم تتجه الى الفرس وتطوق عنقها وتتحسسها فى سعادة ، وتتأملها . فتعود اليها الذكريات ، فتهتف من أعماقها .

ـــ اليوم عاد جندبة ... بعث من قبره ...

ثم تنظر الى ولدها وتتابع كلامها :

ـــ كلا ، لم يمت جندبة ... هذا هو أنت ... أنت أبوك ياصحصاح .

ويخطر لها خاطر مخيف :

ـــ انى أخشى عليك من عطاف ياولدى ... سيرى فيك جندبة سيد بنى كلاب ، سيراه قد عاد ليستعيد منه الإمارة .

قال الصحصاح لأمه يطمئنها :

ـــ دعى هذه الهواجس يا أمى ، عطاف عمى ، وسأتزوج ابنته ليلى .
وينسى الصحصاح كل شىء ماعدا ليلى ... فيهمس فى شوق :

ـــ كيف حال ليلى يا أماه ؟ هل كانت تذكرنى ؟

ـــ انها بخير يا ولدى ، وما كنا منفردين قط إلا وكان حديثها إلى عنك وعن حبها لك وشوقها اليك .

— ٨ —

خلا عطاف برجاله وأكابر قومه ، وتحدثوا عن الصحصاح ، فقال لهم :

— سأبوح لكم بسرى وأظهر لكم مكتوم أمرى ... اعلموا ياجماعة أن الصحصاح سيجر علينا الكوارث ويوقعنا فى المهالك ، لأنه قتل الغطريف وفرسانه ، وان تسكت عنا قبيلة بنى طى ، فستجمع أبطالها ورجالها ويسيرون الينا وتسفك الدماء بيننا وبينهم ، وقد فتن شباب بنى كلاب بالصحصاح واجتمعوا حوله ، كما لاذ به أوباش الحى . وصار يطعمهم ويهب لهم الخيل والجمال .

قال أحـــد الرجال :

— أيها الأمير ، إن هذا الغلام لاشأن له ولا قيمة ، ولولا أن الناس يعرفون أنه غرس نعمتك وثمرة تربيتك ما أقبلوا عليه .

قـــال :

— انى لا آمن جانبه ، لأن الامارة كانت لأبيه ، فاذا عصانى وخرج عن طاعتى التف الرجال حوله ونصروه على .

قـال رجل :

— ها نحن أولاء بين يديك ، ان شئت قتله قتلناه ، وان شئت بعده أبعدناه .

وقال آخـــر :

ــ انه ذاق طعم سلب الأموال من الأبطال ، فإن تركناه حيا سيجلب علينا عداوات العرب ، وان نحن قتلناه كفينا شره ، ونقول للعرب اننا قتلناه حتى لا يكون فتنة بين القبائل ويثير الحروب بينها .

خرج عطاف فى خمسة من العبيد الأشداء يريد قتـــل الصحصاح ، وقد علم أنه ذهب إلى الصيد فى مكان بعيد عن الحى ، وقد اصطحب عطاف العبيد دون أفراد القبيلة حتى لا ينقلب علية أحد منهم لانتشار محبة الصحصاح فى قلوبهم .

وبينما هم سائرون طلع عليهم خمسون فارسا مدججين بالسلاح ، فقال عطاف فى نفسه : لابد أن هؤلاء من بنى طى جاءوا فى طلب الصحصاح ، فأنا أسلم عليهم وأعرفهم بنفسى وأعلمهم أنى أنكرت على الصحصاح فعله وخرجت لقتله ، وأدعهم يسقونه كأس الحمام ويكفوننى أمره .

تقدم عطاف إلى القوم بالسلام ، فردوا عليه السلام ، وقال له مقدمهم :

ــ من تكون يا وجه العرب ؟

ــ أنا عطاف أمير بنى كلاب .

وصاح المتـــكلم :

ــ وافرحتاه ... هذا ياقوم قاتل أبى ... هذا عطاف بن الحارث .

كان الفتى المتكلم من بنى كندة ، واسمة حريث بن الحجاج ، وكان عطاف قد قتل أباه فى حرب بين بنى كلاب وبين بنى كندة ، وقد هوى فتاة اسمها الغيداء ، وكانت حقا غيداء ، فخطبها من أبيها ، فقال له :

يا ولدى ، أنت حقا كثير المال وذو حسب ونسب ، ولكن كيف أزوجك ابنتى وأنت لم تأخذ بثأر أبيك ؟

والحمامة على قبر أبيك عطشى ... لا تهجع إلا ان قتلت قاتله .

أقسم حريث أنه لا يشرب خمرا ولا يبرم أمراً حتى يقتل قاتل ابيه ، وقال له الفتيان من قومه : نحن معك وبين يديك .

واليوم يقع عطاف بين أيدى حريث وأصحابه لقمــــة سائغة ، قتلوا عبيده وأرادوا قتله ، فأشار بعضهم بأن يأخذوه ويقتلوه فى حى بنى كنده . وشدوا عطافا على جواده بالعرض وربطوا عنقه إلى رجليه من أسفل بطن الجواد .

ودعا حريث إلى حفل يقام فى البيداء حيث يقتل عطافا ويتزوج الغيداء .

* * *

كانت زوجة عطاف تعلم بما خرج زوجها من أجله ، وقد ظلت قلقة عليه ، حتى علمت بعودة الصحصاح ولم يعد هو ... ففزعت إلى ابنتها مولولة :

ــ الصحصاح قتل أباك ، يا ويلتاه .

ــ يا أماه ، أهذا الخبر من ظنك أم جاءك من أعلمك به ؟

ــ ان أباك خرج فى خمسة من العبيد لقتل الصحصاح ، وها هو ذا الصحصاح رجع سالما ولم يرجع أبوك ... اذهبي اليه يا ابنتى واقسمى عليه بحياتك أن يحدثك بما جرى .

لما رأى الصحصاح ليلى داخلة عليه وثب اليها قائما وتلقاها فرحا بقدومها ، ولـكنه رآها باكية العينين فسألها فى حنان :

ــ مالك يا ابنة العم ؟

ــ يا ابن العم ، ماذا صنعت بأبى ؟

ــ وما حاله ياحبيبة القلب ؟

حكت له ماحدثتها به أمها ، فقال لها :

ــ أقسم بهواك ما رأيته ولا أعلم اين هو . ولـكن لابد أن أقتفى اثره وأعلم خبره ، واطمئنى يا أبنة العم .

ركب الصحصاح « مزنة » وسار فى البطاح ، ولقيه فى الطريق رجل من بنى كلاب ، فبادره هذا قائلا :

ــ يا صحصاح ، عمك عطاف مشدود إلى مضرب من مضارب بنى كندة ويحرسه العبيد انتظارا لقتله .

وكان الرجل قد ضل له بعير لايملك سواه فسار يبحث عنه حتى وجده فى حى بنى كندة ، وعلم هناك بأمر عطاف .

نادى الصحصاح فى قومه :

ــ الثأر ... الثأر ... يا بنى كلاب .

وانتشر النداء فى كل مكان ، وعلم القوم انهم مدعوون لانقاذ أميرهم عطاف ، فهبوا من كل مكان ، وسار على رأسهم الصحصاح ، حتى أشرفوا على وادى الجحفل القريب من بنى كندة ، فنزلوا ، وجعلوا يتشاورون فى الخطة ، ورأى الصحصاح أن يسلك سبيل الحيلة ، فقال لهم ابقوا هنا حتى أكشف لكم الحال وأعود اليكم ثم نعمل مافيه الصواب .

دخل الصحصاح حى بنى كندة كأنه من عابرى السبيل ، فرأى شيخاً مهابا أمام بيت كبير قد فرش أمامه بساط وفى أركانه وسائد ، فحياه بالسلام ، فأجاب الشيـــخ :

أهلا بالضيف النازل ، اجلس على الرحب والسعة .

وقدم اليه حفنة من الثريد وقال له :

ــ هيا إلى الزاد يا وجه العرب .

كان فى نية الصحصاح أن يقاتل ، فامتنع عن الطعام ، فقال له الشيخ :

ــ مابالك لاتأكل من طعامى ؟

ــ قطعت على نفسى ألا أتناول الزاد حتى تقضى حاجتى .

ــ وماحاجتـــك ؟

ــ ان عطافا قتل أبى ، وقد آليت ألا آكل اللحم حتى أراه قتيلا .

ــ ابشر يا فتى ... ستراه فى الصباح مجندلا .

ــ بشرك الله بالخير ياعم ... أين هو الآن . ؟

ــ فى ذلك البيت .

ونظر الصحصاح الى حيث أشـــار الشيخ ، فرأى بيتا على بابه عشرة من الحراس الأشداء .

تظاهر بالنوم ، ولم تغفل له عين ، حتى رأى القوم قد ناموا ، فتسلل الى الخيمة التى بها عمه ، واقتحمها من الخلف بعد أن قطعها بسيفه ، وإذا هو أماعطاف فقال هذا بصوت ضعيف خائف :

ــ من أنت ؟

ــ أنا الذى خرجت لقتله .. جئت لإنقاذك من الموت :

ــ الصحصاح ... لا ياولدى ... لاتصدق .

ــ دعنا الآن من هذا الكلام ... هيا بنا فالعبيد نيام .

ومزق وثاقه بسيفه ، وخرجا من الخيمة محاذرين .

قال عطـــاف :

— انی یاولدی فی غایة الضعف ولا أستطیع المشی .

وفك الصحصاح رباط جـــوادین من الخیل القائمة ، ورکبا خارجین من مضارب بنی کندة ، وصهل جواد ، وانتبه الحراس ، وثار الرجال من کل ناحیة واستطاع الصحصاح وعمه أن یصلا الی وادی الجحفل حیث ینزل قومهما قبل أن یدرکهما اللاحقون بهما من بنی کندة ، واشتبك الفریقان فی معرکة حامیة جال فیها الصحصاح واعبت السیوف بالأرواح .

ولما رأی بنو کندة شدة بأس المقـــاتلین رکنوا الی الفرار وعاد بنو کلاب الی دیارهم .

— ١٠ —

دخل عطاف على زوجته مهموما عابس الوجه . فقالت له :

ــ ماذا يشغل بالك ؟ لقد حمدنا الله على نجاتك وعودتك سالما .

ــ ان الذى دبرته وسعيت اليه قد انقلب على .

ــ قل لى ماذا يشغل بالك ؟

ــ الصحصاح .

ــ سمعت من أهل الحى حديثهم عن الصحصاح ووصفهم له بالأوصاف الملاح .

ــ والله ... لقد رأيت منه فوق الوصف .

ــ ألم تقع محبته فى قلبك ؟

ــ الحقيقة أنى كلما أردت أن أحبه ، وكلما زادت أعماله الحميدة ، ازددت بغضاله . . لقد مالت اليه الأبطال والتف حوله الرجال ، وسوف يأخذ وضعى ويطمع فى الإمارة لأنه ابن جندبة ، وشجاعته فائقة .

وزفر عطاف وهو يقول :

ــ من الذى يسره أن ينتقل ملكه الى غيره ؟

ــ لماذا يذهب ظنك الى هذا ؟ أنه غرس نعمتك وطامع فى ابنتك ، نزوجه ليلى .فيكون تحت أمرك ويبقى فى طاعتك وخدمتك .

— رق له قلبك ؟

— أليس أبن أخيك وقد ظهرت فعاله وتحدث الناس بشجاعته وحسن شمائله

فهب عطاف غاضبا ووضع يده على سيفه وهو يهدد زوجته :

— والله ... ان أعدت على هذا الكلام لقطعت رأسك بهذا الحسام .

فلما رأت غضبه مالت الى ملاينته وقامت اليه فقبلت رأسة وقالت له :

— ماقلت لك هذا الكلام إلا لأعلم ما فى نفسك ... لا أذاقنى الله فقدك ... وعندى طريقة للتخلص منه دون أن تعرض نفسك الملام أو للهلاك .

— عجلى ... فقد ضاقت بى الحيل .

— عندما يجيء ويطلب يد ليلى . قل له أنها لك يا أبن أخى ، ولكن أصبر حتى تستطيع أن تقدم لها أمام العرب مايليق بها من النوق والجمال وتقيم الأفراح وندعو اليها وجوه العرب من كل مكان ... وهو الآن لا يملك شيئا ، فقد فرق ما غنمة من بنى طى على من يحيطــون به . وأولم لهم الولائم ، ولم يبق لديه غير « مزنة » .

— واذا ذهب يغير على القبائل ويأتى بالمال ويقدم المطلوب من الجمال ... ماذا تقول له فى ذلك الحال ؟

— أنه شجاع ومغامر ، ومثله قصير الأجل ... ولابد أن يقع فى الهلاك فنســتريح منه .

— ١١ —

قالت الأم وقد رأت ولدها الصحصاح يستعد للرحيل :

— الى أين ياولدى ؟

— قد علمت ماطلبه عمى من مهر لليلى .

— لو أنك أبقيت على ما كسبته من بنى طى لكنت الآن فى غـــنى عن هذه المخاطر .

— يا أمى . إن المال ذاهب ولا يبقى إلا المحامد .

— وعـــلام عولت ؟

— أن أسير وأقصد الملك الكبير ، كى يرزقنى بمال أرجع به الى ليلى ، أنه على مايشاء قدير . وفى سبيل ليلى كل صعب يهون وكل عسير يسير .

ودع الصحصاح أمه ، وأخذ عبدا له يسمى « نجاح » وخرج من الديار الى القفار وسار يقطع الربا والبطاح ، لا يلتقى براجل ولا راكب ، حتى خيل اليه أن الحياة قد تحولت الى صخور ورمال ... ليس فيها من يتنفس سواه ، وسوى مزنة فرسه ونجاح والجواد الذى يركبه ويسير به من ورائه .

وظلا على ذلك أياما وليالى حتى نفد مامعهما من الزاد ؛ ولم يصادفهما طير ولا حيوان يصاد ، ثم لاح لهما واد كثير الغدران ، فسيح الجنبات ، فى بعض نواحيه أزهار ونبات ؛ فانشرح صدر الصحصاح من جمال المكان ، وقال انجاح :

— هيا ننزل فى هذا الوادى ، نستريح ونرتوى من هذا الغدير ، ثم نلتمس ما نأكله من رزق الله .

— انى فى منتهى العطش يامولاى ، وسأذهب الى الماء وآتيك منه بما يروى غلتك .

وبعد أن أكلا وشربا واستراحا قليلا قاما يتمشيان فى أرجاء ذلك المكان ، واذا هما يسمعان جلبة وصياحا ، ويريان رجالا بأيديهم سيوف مسلولة يحيطون بشاب يريدون الفتك به ، وقد ظهرت فتاة مليحة القوام قمراء الوجه زهراء الجبين ، بيدها سيف ، وهى تقول :

— والله لئن لم تطلقوا ابن عمى لأضعن هذا السيف فى بطنى لكى يخرج من ظهرى ، ولا يمكن أن ينال أحد منى منال .

ورأى الصحصاح فارسا كالح الوجه ضخم الجثة يهجم على الشاب يبغى قتله ، فصاح به أن يكف ... فالتفت الفارس اليه ، وشرع السيف فى وجهه ، فاستقبله الصحصاح بضربة على هامته شقته كما يشق الكاتب القلم ... وصاح فى الباقين : كفوا عنه ، والا ألحقتكم به ... فتراجع القوام عن الشاب وقد أفزعهم فعل الصحصاح وصياحه .

* * *

— من أنت أيها الفتى وماحكايتك مع هؤلاء ؟

قال الشاب للصحصاح بعد أن شكره وأثنى عليه :

— إننا أيها الفارس الهمام من بنى ربان ، أسمى غانم ، وهذا عامر ...

وأشار الى رجل يزفر من شدة الغيظ ... ثم قال :

— هذا الرجل عمى ، وليته ما كان عمى ... ما كان أبى يظن أنه سيفعل بى مافعل ، إذ أوصاه بى وترك لى المال عنده أمانة ، وعاهده على أن يزوجنى ابنته « لبنى » ودفع اليه صداقها ألف ناقة .

ـــ هذه الفتاة التى كانت تصيح بهم أن يدعوك ؟

ـــ نعم هى ، لقد نشأنا معا وتحاببنا ، ولكنه خان الأمانة ونكث العهد . أخذ الأمـــوال ، وأراد أن يزوج ابنته لذلك السفاك الذى قتلته ...

وقد أخذت لبنى من الخباء ، وجئنا الى هذا المكان ، وجاءوا فى أثرنا حتى رأيت مارأيت ياسيدى الفارس .

ـــ ومن يكون ذلك الرجل ؟

ـــ انه كبير بنى حرب بن همام ، جمع الأموال من الحرام . كان هو وعمى عامر يقطعان الطريق على حجاج بيت الله الحرام ويسلبان أموالهم .

التفت الصحصاح الى عامر وقال له :

ـــ أين أنت من مالك يوم الدين ؟ أما تعلم أنه لك بالمرصاد وأنه يجمع الخلق على صعيد واحد يوم المعاد ؟

اشتعل عامر غضبا من كلام الصحصاح ، وهب واقفا يقول :

ـــ أقصر أيها الغلام والا سقيتك بسيفى كأس الحمام .

فأجابه الصحصاح :

ـــ ماذا تقول أيها الظالم الغادر ؟ والله لأريحن منك العباد وألحقنك بصاحبك وزميلك فى الفساد .

وركب كل منهما ، وجرد سيفه ، وما هى الا جـــولة حتى كان عامر مجندلا بجوار صاحبه السفاك ، وصاح الصحصاح فى باقى القوم

ـــ هل فيكم من يأخذ بثأر عامر ؟

فصاحوا جميعا :

ـــ لا رحم الله الغدار ... كفانا الله شره .

شكر غانم للصحصاح مافعله وقال له :

ــ لقد صنعت لنا معروفا لا ينسى ، والجميل عند الكريم لا يضيع ، وعندى الآن ستة آلاف من النوق والجمال ، فخذ منها ثلاثة آلاف ، أسالك بالله أن تقبلها هدية منى جزاء معروفك .

ــ هيهات ... لا آخذ شيئا على فعل الجميل .

وودع الصحصاح القوم وسار هو وعبده نجاح كأنه لم يفعل شيئا ...

ولما بعدوا قيلا قال نجاح :

ــ يامولاى ، أيعطيك غانم ثلاثة آلاف ناقه وتعف عنها ؟ كان يمكن أن تدفع منها ألفا الى عطاف مهرا لليلى ، والألفان يبقيان على طول الزمان أترى لو طفنا فى مشارق الأرض ومغاربها ، هل نحصل على مثل هذه العملية ؟

ــ أتريد أن آخذ على فعل الجميل أجرا ؟ لا كان ذلك أبدا .

ــ سيتزوج غانم لبنى ، وأنت يامــــولاى تتجشم الأسفار وتقطع القفار لاتدرى متى ترجع الى ليلى ...

ــ كف عن هذا الكلام ياابن اللئام . انى أتعزى عن ليلى بهذه الفعال ..

— ١٢ —

سار الصحصاح وعبده نجاح من سهل الى جبل ، ومن جبل الى سهل ، يصعدان وينحدران ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع أشرفا على أرض فسيحة ما كادا يسرحان الطرف فى أرجائها حتى رأيا غبارا قد ملأ الجو وحجب الشمس عن الأبصار ، وسمعا صراخ نساء وبكاء غلمان وركض خيل وصياح فرسان .

قال الصحصاح لنجاح :

— أذهب فانظر ماهذا وماذا وراءه ؟

ذهب نجاح ، ثم عاد يقول :

— أشياء لم أرها فى حياتى يامولاى ، هوادج عليها أعلام مذهبة ، ونساء وبنات عليهن عصائب الذهب والفضة وثياب من الديباج ، ورجال على رءوسهم عمائم الحرير والتيجان ، وأحمال من الدر والياقوت والمرجان أشياء لا أستطيع أن أصفها يامولاى ، أشياء لم تقع عينى على مثلها قط .

— ويحك قل لى هل معهم فرسان .

— رجال مجروحون مشدودون على الخيل ، وعبيد وجوار يندبون ساداتهم ، وقد أحدق بهم فرسان كأنهم السباع الضوارى ... نسيت أن أحدثك يامولاى عن هودج كبير فى مقدمة الهوادج ، فيه فتاة ذات بهاء وجلال وحياء تقول لمن معها من النساء والجوارى بصوت ينبىء عن قدرها العظيم :

— ويحكن ... اصبرن على القضاء وتلقينه بالرضا وارجعن الى الله تعالى فى أموركن ، فان الذى قصدنا بيته لقادر أن يبعث الينا بناصر غير قاصر يخلصنا من هؤلاء اللئام الذين قطعوا الطريق على حجاج بيت الله الحرام .

قال الصحصاح وقد علم أنه مشرف على معركة حامية وأمر جسيم :

— لقد سلوت عن ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف .

قال نجاح وقد رأى العزم وسيماء المخاطرة على وجه الصحصاح :

— يامولاى ، ماتعرض لهذه القافلة وحراسها الا رجال أبطال ، وقد كان فى القافلة فرسان كثيرون ، صاروا بين مقتول ومأسور فلا تعرض نفسك يامولاى لهذه المهالك .

ياابن اللئام ، ما يقعد عن نصرة الحريم الاكل لئيم .

قال الصحصاح ذلك ، وتقدم يعلو ظهر مزنة ، وركض نحو القوم وهو يصيح :

— ياأنذال البادية والطائفة الباغية ، وأقسم بمن جعــل البيت الحرام حمى للناس وأمنا لئن لم تتخلوا عن النساء وحجاج بيت الله وما معهم من المال لأجعلن اجسامكم بلا رؤوس ولا جماجم واتركن جراحكم لاتجدى فى علاجها المراهم .

وصال فى المجال ، وحمل عليه الأبطال ، وطال بينه وبينهم الطعن والقتال ، وجعل أهل القافلة يدعون الله أن ينصر هذا الفارس الذى تصدى للدفاع عنهم ، وارتفعت أصواتهم بالدعاء عندما رأوهم يختفون عن الأبصار وسط الغبار الثائر ، هـــاتفين :

— يا واحد أنصر هذا الواحد .

واحتبست الأصوات وزادت ضربات القلوب عندما رأوا جوادا خاليا من راكبه يظهر من المعمعة راكضا ، ثم آخر مثله . . ثم ثالثاً ورابعاً وخامساً

وسادساً .. وانكشف الغبار عن الباغين وهم على الأرض مصروعون ، والصحصاح يمسح سيفه على أعراف مزنة ... فعلت الأصوات بالتكبير وحمد الله العلى القدير .

وظهرت صاحبة الهودج الكبير ، وتقدمت من الصحصاح ورائحة الطيب تسبقها وتعطر المكان ، وقالت :

— يافتى العرب ، لقد أحسنت صنعاً ، وكرمت أصـــلا ، وأرضيت ربا ، وأوليتنا إحسانا ، وصنتنا من اللئام ، وحميت حجاج بيت الله الحرام ، فأبشر بالخير العميم والمال الجسيم .

قال الصحصاح :

— والله مافعلت هذا لذهب ولا فضه . ولا أريد أخذ مال ، وخلاصكم نعم المكسب وخير الجزاء .

هتفت صاحبة الهودج :

— لله نخـــوة عربية .

ثم قالت بصوت رقيق :

— استرح يا فارس العرب حتى نهيء لك طعاما وشرابا .

قال الصحصاح وهو مطرق :

— أما هذا فحبا وكرامة .

* * *

اقترب نجاح من سيده الصحصاح وهو يتطلع اليه فى تفحص وتودد ، ثم تنحنح وقـــال :

— هذه الأموال الكثيرة ، والخيرات العظيمة .

— اغرب عن وجهى ... انى أعلم ماذا تريد أن تقول .

— قل لى يا مولاى ... لماذا خرجنا ، ومن اين نأتى بصداق ليلى ؟

— ويحك لا تفسد على لذة المعروف ونشوة النصر .

المعروف ... المعروف ... مادام هذا المعروف أمامنا فلن نعود بشيء .

— اسمع يانجاح ... الست ترى هؤلاء القوم مسرورين فرحين بنجاتهم ؟ أتريد أن تأخذ منهم ثمن الفرح والسرور ؟

— وماذا نأخذ اذن ؟

— لقد غنمت الكثير ... لو كنت تعلم !

— لا أفهـم شيئاً .

سكت الصحصاح قليلا ، ثم قال :

— اعلم يانجاح أن الله يرزقنا من حيث لا ندرى .

— لماذا ياسيدى اذن لاترجع إلى أهلك ، وكفانا ما لقينا ومافعلت من الجميل .

— كف عن هذا الكلام يا ابن اللئام ... ها قد جاء القوم بالطعام .

قال نجاح يحاول أن يحاكى سيده فى مزاح :

— أما هذا فحبا وكرامة .

- ١٣ -

ذعرت القافلة وانتشر فيها هرج ومرج ودب فى نفوس أهلها الخوف والقلق بعد أن شعروا بالأمان وأظلهم السلام ... وذلك عندما شاهدوا الفارس الذى حماهم من ذئاب الصحراء يركب ويهم أن يمضى لحال سبيله .

وتقدمت صاحبة الهودج الأول تشرق طلعتها ويحفها الجلال ، وقالت للصحصاح

— ياسيد العرب وكاشف الكرب وحامى الديار من الأشرار ، لماذا لا تصحبنا إلى بلادنا وتعلم من أنا وتظفر بالإكرام والجزاء على ما صنعت ؟

— هيهات أيها المصونة ... لا كان ذلك أبدا ، ولن آخذ على اصطناع المعروف جــــزاء .

— أيها الأمير ، نحن هنا أضعف خلق الله ، ومعنا هذه الأموال والأثقال ويطمع فينا كل من يرانا ، ولا يتفق لنا أن نصـــادف مثلك يمنعنا من الطامعين ، يحمينا من المغيرين . أنت أيها الأمير لا تعرفنى حتى الآن ولم تسألنى عن نسبى .

— أنى أبذل ما بذلت لأى كان فى مثل هذا الحال .

... على أى حال أنا أعرفك بنفسى ... أنا « مروة » بنت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ... جار علينا الزمان فوقعنا فى ايدى أولئك الفرسان .

وبكت مروة ، فرق لها قلب الصحصاح ، وأجابها :

— ياسيدة العرب وكريمة النسب ، أنا أسير معك إلى حيث تأمنين .

وسار الصحصاح أمام هودج مروة ، وهو يكبح جماح مزنة حتى تمشى به على قدر مايمشى البعير الذى يحمل الهودج ... وكان نظره إلى الأمام دائما ، فاذا اضطر إلى الالتفات وراءه ،لم يرفع رأسه إلى الهودج كان يشعر أن مروءته تمنعه من النظر إلى أعلى حتى لايقع بصره على السيدة التى صارت أمانة فى ذمته وشرف نفسه ... وكان يتخيل ليلى هى التى فى الهودج ومكانه رجل آخر .

وجعل الصحصاح يفكر فى ليلى وغدر عمه عطاف ، وساورته الشكوك فى أن يكون موقفه منه كموقف عامرمن ابن أخيه غانم ... ألا يحتمل أن يفعل فعل عامر فيزوج ابنته من رجل غنى يسوق اليه آلاف الابل مهرا لها ؟ هل يعود اليه فيقاتله ؟ لا ، إنه عمه على كل حال ، وكيف يكون شعور ليلى ازاء قتل أبيها ؟ لا ، وتخيل نفسه عائدا إلى قومه بنى كلاب ومعه الأموال ويسوق الابل والعبيد التى يغنمها ، فيهب ويطعم ويدفع مهر ليلى إلى ابيها ، ويقيم الأفراح ، ويولم الولائم . ولكن كيف يأتى بهذا المال ، يغير على القبائل ويأخذ الأسلاب والغنائم ... وتصور نفسه مكان أولئك الذين أغاروا على قافلة مروة بنت عبد الملك ، هذه القافلة التى يحرسها ويحميهـــا .

كانت الصحراء تنبسط أمامه وتشرق عليها أشعة الشمس ، ثم تضيق أمام ناظرية ويسود الأفق ، ثم يقول لنفسه : لا تبتئس فرزق الله يأتى من حيث لاتحتسب. لا ينبغى الآن أن يشغلك شىء إلا أن تصل هذه السيدة ومن معها إلى مأمنهم سالمين .

وراح فى إغفاءة لذيذة وهو على ظهر مزنة وقد هب عليه نسيم الأصيل .

* * *

انتبه الصحصاح من غفوته على أصوات وصراخ ونظر فرأى غبارا ووقع حوافر .. وتقدم منه عبد أسود ، وحياه بتحية الفرسان العظام وقال له :

— انى رسول اليك ، أقص ماحملته عليك ، وما على الرسول عتب فيما يبلغ افتأذن لى يامولاى أن أقول ولى الأمان ؟

— قل وأنت آمن .

ــ أنا رسول من عند أولئك الفرسان ، وهم من بنى مخزية الذين أغاروا على هذه القافلة وقاتلتهم ، فربعضهم من وجهك وعاد إلى قومه يستنجدبهم عليك . ان بنى مخزية يعيشون على ما يسلبون من القوافل ، وقد وقعت فى أيديهم هذه الغنيمة التى لم يروا مثلها قط... وهم يقولون لك : قد وهبناك دم القتلى وخيولهم وأسلابهم ، ثم يطلبون أن تترك هذه الغنيمة ويعطونك منها ما يرضيك . وتعود سالما الى محلك ، انهم عشرة من أقوى فرسان العرب ، فهم الغضبان والغيداق وشوم الزمان والهجام الذين يهابهم الرجال وتضرب بهم الأمثال ، وقد رضوا أن تكون الحادى عشر فى القسمة فارحم شبابك واغنم نصيبك وسلامتك .

استغرق الصحصاح فى الضحك حتى كاد يستلقى على سرجه ، ثم اعتدل وقال :

ــ أنهم لا يعــــرفوننى ... أنا الصحصاح بن جندبة بن الحارث الكلابى ، قاتل الغطريف بن مالك وقاهر بنى كندة ... أرجع اليهم وقل لهم أننى لا أقاسم مال حجاج بيت الله الحرام ، فان طلبوا المبـــارزة فليتقدم من يبارز ، وان شاؤا الحملة جملة فالعدد الكثير والقليل عندى سواء اذا جالت الخيل فى البيداء .

* * *

برز الغضبان الى الميدان ، كأنه شيطان على حصان ، وفى يده سيف يمــــانى ورمح طويل ، واستقبله الصحصاح على ظهر مزنة ، وتبادل الفارسان الضرب والطعان ، ثم سدد الصحصاح الى صدر الغضبان طعنة قاتلة .

وتعاقب الفرسان العشرة ، فى مبارزة الصحصاح ، وهو يضربهم واحدا بعد الآخر ، حتى بقى منهم رجل يقال له « مخادع » تقدم الى الساحة واشتبــــك مع الصحصاح فى القتال ، وفجأة صاح :

ــ ياصحصاح ، أنك ساحر عظيم ... لقد ضربت فرسك بسيفى فقطعت رجلها ، ولكنها تثبت وتمشى على ثلاث قوائم كأن لم يصبها شىء ... إما أن يكون هذا من سحرك ، وإما أن يكون من بركة حجاج البيت الحرام .

صدق الصحصاح هذا الكلام ، وداخلة الخوف على فرسه « مزنة » فانحنى ينظر اليها ... وانتهز مخادع هذه الفرصة وعاجله بضربة قوية جاءت على الدرع فقدته ... ولكن الصحصاح اختل توازنه فسقط على الأرض ، وهنا أسرع الصحصاح قائما وضرب قوائم فرس مخادع ، فسقطت الفرس وصار مخادع على الأرض أمام الصحصاح ، وراح يصاوله حتى ضربه الصحصاح ضربة شقته نصفين .

وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وكان التعب قد نال من الصحصاح مناله ، فجلس يستريح ، وأقبلت عليه صاحبة الهودج بطاس من الذهب فيه عسل ولبن ، وقدمته له فشرب وشكر لها ، فقالت :

ــ ياسيد العرب وكاشف الكرب ، لقد قاتلت قتالا عجيبا ، وأبديت من الشجاعة والمروءة مالا مثيل له ، ولا ندرى كيف نشكرك أو نجازيك .

أطرق الصحصاح خجلا ولم يتكلم .

— ١٤ —

لما تأخر وصول مروة الى دمشق جزع عبد الملك بن مروان وخاف على ابنته ، وكان يحبها حبا شديدا لرجاحة عقلها وسعة علمها ، فجمع أولاده وأصحاب الرأى من خاصته ، وأعرب لهم عن قلقه وتخوفه ، فقال ابنه مسلمة :

— أرى من الصواب أن نكتب الى مروان بن الهيثم الذى أوليته على عرب البادية ، وصار مسئولا عن رقاب العباد فيها وتأمره بالبحث فى شعاب الصحراء ومسالك الحجاج حتى يعثر على مروة ومن معها ويحميهم من المخاطر والمهالك .

ووصل « النجاب » برسالة الخليفة الى مروان بن الهيثم أمير عرب البادية ، فصاح فى قومه بنى سليم أن هبوا لانقاذ ابنة أمير المؤمنين .. وكان قد وصلت أنباء عن تعرض بنى مخزية لها ، ولكنه لم يحقق ذلك ، فلما وصل اليه كتاب عبد الملك أيقن صحة الأنباء ، فخرج الى بنى مخزية بألف من فرسان بنى سليم ، فحاربوهم فى ديارهم ، ولكن دون أن يقع مروان على أثر لقافلة مروة ، ثم علم من بعضهم بما حدث لها وأن فتى يقال له الصحصاح من بنى كلاب حماها وقتل المغيرين عليها وسار فى ركبها .

وظل مروان ورجاله يبحثون ويتقصون دون فائدة ، فكتب الى الخليفة يعلمه ويقول أنه جاد فى البحث والطلب .

غضب عبد الملك غضبا شديدا ، وتضاعف قلقه وحزنه ، وانتشر الخبر فى دمشق وعم الحزن أهلها ، لما لمروة عندهم من مكانة كبيرة عزيزة وود كل منهم أن يفديها بنفسه ، وقال الخليفة لأولاده :

— لقد أذلت ختـكم بعد عزها ، وانفردت عن الأهل واضحت غـريبة مأسورة تخضع الأعداء وتستجير بالغرباء وهى الصوامة القوامة . لن يقر لى قرار بعدها ، جهزوا الجيوش وأعدوا العـدة ، واكتبوا الى العرب والعشائر .

اغتم مسلمة وسليمان وسائر ابناء عبد الملك بن مروان لفقد اختهم ، واهتموا بأمرها أشد اهتمام ، وشرعوا ينفذون ما أمر به الخليفة ، وقال كل منهم : لابد من الخروج والسفر فى طلب مروة ولو الى السند الاقصى ، ولن أعود بدونها ولو فقدت الحياة .

* * *

ظلت القافلة متجهة نحو الشام ، حتى رأى الدليل علامات القرب من دمشق ، وبانت للجميع معالم ضواحيها ، وهبت عليهم روائح البساتين ، وأحسوا بالراحة والفرح العظيم

أمر الصحصاح عبده نجاح أن يجهز للعودة ، وتقدم يهنىء صاحبة الهودج بسلامة الوصول ، ويستأذنها فى الرجوع الى بلاده . فقالت له :

— لا والله ، لا يكون ذلك ، ولا ينبغى أن يكون ، كيف نتركك تمضى دون أن تأتى معنا الى ديارنا وتتعارف مع أهلنا ، وتقابل أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، وتنال ما أنت أهل له من الإكرام ؛ ويكون دخولك الى دمشق فى يوم مشهود .

سكت الصحصاح ، واستأنفت مروة تقول :

— ان دمشق عاصمة الحضارة ، وفيها العلماء والشعراء ، وستجتمع بهم ، وتحضر مجالس الخليفة ، وتسمع فيها ما يطربك ، وترى دمشق وقصورها ورياضها وبساتينها ، وتتعلم علومها وآداب حضارتها .

أجاب الصحصاح مسرورا :

— حسن ايتها السيدة المصونة ، ولابـــد ان اسير معك الى ابيك ، ومن السوء أفديك .

— اعلم ان أبى وأخوتى وسائر أهل دمشق سيحتفون بك ، ويظلون أياما لا حـــديث لهم الا عنك ، وعن شجاعتك ومروءتك ، وسينثر عليك الذهب والفضة ، ويصل اليك من المال والهدايا شيء كثير .

أطرق الصحصاح خجلا كعادته ولم يتكلم .

وبينما هم كذلك اذا هم يرون الجيوش قادمة نحوهم تكاد تسد الأفق ، ويظهر فى مقدمتها مسلمة ، ويلتقى الفريقان وتعلو صيحات الفرح ، وتسيل الدموع من شدة السرور . ويدخل الركب المدينة وقد ارتفعت على مشارفها الرايات والأعلام ، وانقشعت من سمائها سحب الحزن والاظلام .

- ١٥ -

قال عبد الملك بن مروان للصحصاح وقد أجلسه بجـــواره فى قاعة العرش بقصر الخلافة :

ـــ لقد فعلت أيها الفارس ما لم يفعله أحد من فرسان البادية ، أسديت الينا معروفا لاينسى ، دافعت عن حريمنا وأنقذت أعراضنا من العار ، وأدبت العابثين بالأمن والمعتدين على حجاج بيت الله من بنى مخزية الذين دأبوا على قطع الطريق ونهب القوافل بين الحجاز والشام ، وقد ولينا مروان ابن الهيثم أمـــيرا على عرب البادية كى يؤمن الناس ويصون الأرواح والأموال من قطاع الطريق ، ولـكنه لم يقم بواجبه ، وتهاون فيه ، حتى طمع بنو مخزية فى ابنتى ... وقد صانها الله على يديك ...وعادت الينا سالمة موفورة الـكرامة بفضل شجاعتك ومروءتك ، فحق علينا شكرك واكرامك ومجازاتك .

وأطرق الصحصاح خجلا كعادته عندما يسمع الثناء والشكر ، لقد عجب من مظاهر الحفاوة به فى المدينة ، وما أحيط به من التـكريم والتعظيم فى مجلس الخليفة ، وهو فى نفسه لا يدرى مايدعو الى كل ذلك . انه فقير يتيم حرم اللقاء بحبيبته ومنع من زواجها لفقره ... لأنه لايستطيع أن يقدم لأبيها بضع مئات من الإبل مهرا لها ، وخرج فى طلب هذا المهر ، فقادته الصدفة الى قافلة بنت الخليفة ، وما كان له أن يفعل الا مافعل ... فعلام كل هذا التـكريم والتعظيم ؟؟

وهم أن يقول شيئا يخرجه من حرج السكوت والخجل . ولـكن ما سمعه من

الخليفة بعد ذلك أمسك لسانه ونقل مداركه ومشاعره الى عالم يشبه عالم الأحلام .. قال الخليفة :

— لقد وليناك أميرا على عرب البادية مكان ابن الهيثم ... واعلم أنك أصبحت منذ الآن مسئولا عن أمن الناس وحفظ أرواحهم وأموالهم ، وعليك بجمع شمل القبائل وتوثيق العلاقات بينها ، فان هذا كفيل بنشر الأمن والسلام وبتحقيق دعوة الإسلام الى الأخوة والترابط. وانى أدخرك أيها الفارس لأمر آخر ...

وسكت الخليفة قليلا ثم قال :

— انى ادخرك ياامير العرب لكلب الروم .

لم يفهم الصحصاح من يعنيه الخليفة بكلب الروم ، وهو ملك القسطنطينية الذى يغير على الثغور احيانا ويرده الجيش العربى ، ولكن الصحصاح ادرك على أى حال ان الخليفة يعنى عدوا له يريد قتاله ، فقال :

— انى يا أمير المؤمنين فى طاعتك وخدمتك ، وسيكون سيفى دائما على رقاب أعدائك .

ولما خلا الصحصاح بمسلمة ، وقد توطدت بينهما الألفة وارتفعت الكلفة ، قال له ان هناك أمرين يشغلان فكرى .

— ما هما يا أمير العرب ؟

— الأول مهر ليلى ... ليلى ابنة عمى التى خرجت للحصول على مهرها ... فضحك مسلمة حتى كاد يستلقى على قفاه من شدة الضحك ، ثم اعتدل وتلطف قائلا :

— ماذا يشغلك يا أمير العرب من مهر ليلى ؟

— كيف أحصل عليه الآن ؟ لقد خرجت لأغير على القبائل وأسوق أبلها وخيلها ، وأقدم لعمى عطاف صداق ابنته الفا من الأبل ، والآن وقد

توليت أمر العرب وصارت دماؤهم وأموالهم فى ذمتى ... ولم يدعه مسلمة يكمل ، إذ قال :

ـ اعلم يا أمير العرب أن أمير المؤمنين ان يبعث بك أميرا على قبائل العرب وأنت فقير محتاج ، بل سيزودك بأموال كثيرة وجيش كبير وخدم وأتباع، وسيجرى عليك رزقا موفورا دائمـــا لا ينقطع ، وستمنح أنت المنح والهدايا لمن يقصدك من العرب والمحتاجين .

وابتسم مسلمة وهو يقول :

ـ وستكون ليلى أميرة البادية ، ترفل فى الدمقس والحرير ، وتتحلى بالذهب واللؤلؤ والزمرد والياقوت والمرجان .

دهش الصحصاح، وسرح خياله فى ليلى ، وتخيلها أمامه فى هذا النعيم الذى يصفه مسلمة ... ثم ساوره القلق ... ترى هل يغدر به عمه ويزوجها لغيره فى غيبته ... فاكتأب ... ثم أعرب لمسلمة عن رغبته فى العودة ... فقال مسلمة .

ـ لا ، يا أمير العرب . إنك لابد أن تقيم عندنا حتى نقوم بواجب إكرامك وحتى ترى دمشق وما فيها من الحضارة ، وتشهد بساتينها ورياضها ، وتلتقى بعلمائها وشعرائها ، ولكن قل لى ما الأمر الثانى الذى يشغل فكرك؟

ـ آه ، حقا لقد ذكرتنى ... من كلب الروم الذى ذكره أمير المؤمنين ؟

ـ هو عدو العرب ملك الروم ، وهو يبعث بجيوشه إلى بلاد المسلمين لكى يستولى عليها ويذل أهلها .

ـ ويل له ... ومتى يفعل ذلك ؟

ـ دع هذا أيها الأمير الشجاع إلى وقته. وقم بنا كى تستريح فى قصر الضيافة .

ـ لقد ضقت ذرعا بالجدران ، لأنى تعودت على الخلاء والنوم فى الخيام .

ـ لا بأس ، نقيم لك فى أحد البساتين سرادقا يليق بمقامك .

طابت للصحصاح الإقامة فى دمشق ، إذ رأى فيها ما لم تقع عليه عينه من قبل ، رأى الأبنية العالية والدور المحاطة بالحدائق والبساتين والشوارع المنتظمة والحوانيت المملوءة بالبضائع والطرائف ، وكان يعجب من أصناف الطعام والفواكه التى تقدم إليه فى أطباق مذهبة ومفضضة ، وكان ينظر إلى كل ذلك وإلى أستار الحرير والبسط المفروشة فى سرادقه والخدم الذين يقفون بين يديه عندما يطلب شيئاً ، فيتعجب من حاله وما صار إليه ، ويذكر خيمته الكالحة بمضارب الغرباء عند طرف من أطراف حى بنى كلاب ، ويذكر فتات الطعام وبقايا الثريد التى كانت تأتى من بيت عمه عطاف أو تحضرها أمه من هناك . . ويقول فى نفسه : سبحان مغير الأحوال ورازق الطير فى الأوكار . .

وتردد مع مسلمة على مجالس العلم فى المسجد الكبير بدمشق ، وسمع أقوال العلماء وقصائد الشعراء فى مجالس الخليفة والأمراء ، وتبادل مع شعراء الحضر قصائد الغزل ، فكان ينشدهم ما يقوله فى الشوق إلى ليلى والتعبير عن صادق حبه لها ، فيعجبون بفصاحته ، وينشدونه أشعارهم الرقيقة فيعجب برقتها ويضحك من بعض ما فيها من دعابات ، ويطرق أحيانا من الخجل لما يقوله بعض المجان من الشعراء . . مما لا يجرى على ألسنة البدو ولا تألفه أسماعهم .

وتعلم فى أثناء ذلك القراءة والكتابة ، وحفظ كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وكان يهتم اهتماما خاصا بما يحث منها على الجهاد فى سبيل الله ، وما يأمر بالترابط والإخاء بين المسلمين وينعى على العادات الجاهلية والعصبية

القبلية ، مما لا تزال بقاياه متفشية بين قبائل العرب فى صحراء الحجاز ، ويحمد الله على أن يسر له الإطلاع على هذه المعارف ولم يقض حياته فى الاغارة على القبائل والنهب والسلب كما يفعل القوم هناك .

وتوطدت الصداقة بينه وبين مسلمة بن عبد الملك ، ولازم مسلمة صحبته حتى إنه لم يكن يفارقه إلا فى أوقات قليلة ، وكلما أبدى الصحصاح رغبته فى العودة إلى البادية ألح عليه مسلمة فى البقاء .

ولما اشتد به الحنين إلى دياره وأهله ، وبرح به الشوق إلى ليلى ، لم يستطع البقاء فى دمشق ، فأصر على الرحيل ، ودخل على الخليفة يستأذنه، فأذن له، وقال الصحصاح :

— يا أمير المؤمنين ، لقد غمرتنى بالإكرام ، وأعطيتنى ما لم يخطر مثله فى الأوهام ، وقد بقيت لى حاجة واحدة هى تمام الأنعام .

— وما حاجتك يا أمير العرب ؟

— يا أمير المؤمنين ، لقد نشأت يتيما فى الصحراء أعيش بين أهلى عيش الغرباء ، ولا خبرة لى بشئون الإمارة ، ولا آمن ابن الهيثم وقومه من بنى سليم ، فقد يحمله العزل على العصيان ، وإنى أرجو أن ينعم على أمير المؤمنين بالأمير مسلمة يدخل معى إلى البادية ويعهد لى ويوقفنى على مراسيم الإمارة ويشد أزرى وتكسبنى صحبته مهابة بين الأعراب . فإذا استتب لى الأمر واطاعتنى قبائل العرب رجع الأمير مسلمة موفقا موفورا وكنت به مؤيدا ومنصورا .

أطرق عبد الملك هنيهة ، ورفع رأسه قائلا :

— يا أمير العرب ، لك ما طلبت .

ثم التفت إلى مسلمة وقال له :

— قد علمت أن الحاجة داعية إليك ، فسر مع أخيك الصحصاح ، وكن عونا له على كل من تحدثه نفسه بالعصيان والخروج عن الطاعة ، وعليكم أن تقطعوا دابر المفسدين من بنى مخزية الذين يعتدون على حجاج بيت الله الحرام ، ولا تطل الغيبة . أرحلوا بارك الله فيكم .

- ١٧ -

سار الركب إلى البادية متجها إلى ديار بنى كلاب ، مزودا بما أنعم الخليفة على الصحصاح من نفائس الهدايا وغزير الأموال ، يصحبه جيش كبير بلغ عدد فرسانه خمسة عشر ألف راكب ، عدا العبيد والخدم مختلفى الأجناس والألوان . وساروا يقطعون السهل والصعب من الصحراء ، ينزلون حيث يشاءون ويضربون المضارب ، ويأكلون ويسمرون وينامون ، ثم يستأنفون السير . ولأول مرة يشعر الصحصاح فى رحيله بالصحراء بأنه ليس فى حاجة إلى بحث عن ماء للشراب أو صيد للطعام ، فقد كانت القافلة مزودة بكل ما تحتاج إليه من الأطعمة الفاخرة والمياه العذبة المستقاة من نهر بردى العظيم .

وذات ليلة جلس الصحصاح ومسلمة يسمران ، وجعل الصحصاح يحدث مسلمة عن ذكرياته وحبه ومغامراته ، ومسلمة يحدثه عن الوقائع والمعارك التى خاضها فى صد جيوش الروم التى تغير على البلاد الإسلامية ، والصحصاح يصغى إليه بكل انتباهه وشوقه إلى ملاقاة هذه الجيوش ، ويقول :

— أقسم برب الكعبة لو عاد هـؤلاء الكلاب ما تركت منهم ديارا ولا نافخ نار .

— أعلم ياأمير العرب أن عليك أولا عبئا كبيرا فى إخضاع قبائل العرب العاصية ، ونشر الأمن والعدل فى ربوع البادية ، وتأمين طرق الحجاج بين الشام والحجاز . وأن أصعب ماسيواجهك فى مقاومة القبائل أن الأمر لايحتاج إلى الشجاعة فى القتال فقط ، بل يحتاج كذلك إلى الحيلة وحسن

السياسة وتأليف القلوب ، حتى يجتمعوا حولك ويصيروا كلهم أنصارا موالين .

— أجل يا ابن أمير المؤمنين ، وقدسمعت من العلماء فى المسجد الجامع أن كل راع مسئول عن رعيته .

وبدت على وجه الصحصاح علامات الجد والاهتمام وهو يقول :

— وقد سمعت أمير المؤمنين يقول : لوضاعت شاة باليمامة فإنى مسئول عنها يوم القيامة .

— ان مسئوليتك ياأمير العرب جزء من مسئولية أمير المؤمنين .

وانتشر ضوء القمر فى المكان ، فجعل الأميران ينشدان الأشعار ، ثم ساد الصمت لحظة قطعها مسلمة بقوله :

— قل لى ياصحصاح : كيف شوقك إلى ليلى ؟

— هل جربت يوما أن تكون فى قيظ الصحراء وقد اشتد بك العطش وجف ريقك واحتجت إلى جرعة من الماء تعطى فيها كل ما تملك ؟

— حدث لى هذا كثيرا :

— فشوقى إلى ليلى كذلك !

- ١٨ -

طالت غيبة الصحصاح عن أهله وانقطعت أخباره عهم ، فظنوا أنه قد مات في غارة من الغارات . وراحت ليلى وأمه تبكيان عليه . كانت ليلى إذا اشتد بها الحزن وخشيت من اللوم على البكاء بين أهلها ذهبت إلى أم الصحصاح بحجة أن تسأل عنها وتحمل إليها طعاما . وهناك تطلق لدموعها العنان ، وتستمع إلى ندب الأم وعويلها ، فتشاركها البكاء والعويل تارة ، وتارة تمسك دمعها وتحاول أن تسرى عنها وتبعث في نفسها الأمل بعودته . ثم تنخرط معها في البكاء ..

ذهبت ليلى مرة إلى الأم الحزينة ، وكانت قد انقطعت عنها أياما ، فلم تجدها في خيمتها ، ولما سألت عنها علمت أنها ذهبت إلى قبر زوجها « جندبة » وأنها منذ ثلاثة أيام تقضى النهار كله هناك وتعود في المساء . فذهبت ليلى إليها عند القبر وسمعتها تقول في ندبها : ياسيدى ، هل التقت روحك بروح الصحصاح ؟ انى كرهت البقاء ، فتى تلتقى روحى بروحيكما يا أعز الأحباب .. ؟

قالت ليلى وهى تجهش بالبكاء :

— يا أماه ، أرفقى بنفسك ، فان هذا البكاء يؤدى إلى الهلاك .

— وهل أريد بعد الصحصاح حياة أو قرارا .. ؟

— سيعود الصحصاح يا أمى ..

وغرقت كلماتها في دموعها ... ليته يعود .

وبلغ سمع ليلى صياح ، ونظرت فرأت رعاة الأبل يسرعون بها إلى الحى فى فزع ورأت فتيانا من قومها يركبون الخيل ويهيبون الرجال منادين : يابنى كلاب .. هيا يابنى كلاب ..

انزوت ليلى بين القبور ، وقالت لجاريتها . اذهبى وانظرى ماذا وقع .

وعادت الجارية تقول مبهورة الأنفاس :

ــ سيدتى ليلى .. فرسان بنى كندة يغيرون على الحى .. أتت الأخبار بقرب وصولهم ، يقولون ان اميرهم حريث جاء يطلب ثأره من سيدى عطاف

صاحت ليلى :

ــ حريث بن الحجاج الكندى .. الذى أسر أبى وأراد الفتك به ، فأسرع الصحصاح وأنقذه ، وأوقع الهزيمة ببنى كندة ..

ــ نعم ياسيدتى . . يقولون إنه علم بغيبة الصحصاح وأيقن هلاكه فطمع فى بنى كلاب وجاء يطلب ثأره . ولكن لاتخافى ياسيدتى . ان رجالنا سيردونه عن الحى . وقد خرج سيدى عطاف على رأس الفرسان .

ــ لوكان الصحصاح حيا ماجرؤ بنو كندة أو غيرهم على بنى كلاب .

ــ وهل مات حقا سيدى الصحصاح ؟

ــ ومن يدرى ؟

وجعلت ليلى تبكى وتقول فى كلام يقطعه الندب والعويل :

ــ أين أنت ياصحصاح .. ياحامى الحمى وقاهر الأعداء .. ياحبيب القلب يانور الحياة طالت غيبتك وذل بعدك بنو كلاب ... ايه ياصحصاح .. أجبنى أين أنت .. ولكن هل أنت حاضر حتى تجيب ... آه لو أعلم لك مكانا لذهبت اليك ورميت نفسى بين يديك وقبلت قدميك ... ياسيدى وسيد بنى كلاب ... عد الينا ... عد الى عمك عطاف وساعه ... عد لتنقذه

من بني كندة ... ويلاه .. خلا منك الحي ، فماندرى ماذا يصنع الأعداء بنا ... تعال ياصحصاح ... تعال لأمك الحزينه . تعال لليلاك الحبيبة ».

وأرادت الجارية أن تخفف عن ليلى ، ولكن وقع الحوافر والصياح ودقات الطبول أخذتهما الى دوامة المعركة ..

والتقى الرجال بالرجال ، وحملت الأبطال ، واشتد القتال ، واختل الميزان ، وصال بنوكندة فى الميدان ، وبدت علامات الهزيمة على صفوف بنى كلاب ، وثبت الكرام ، وفر اللئام .

وقصر حريث الى عظاف ، وتلقـــاه عظاف شاهرا سيفه ، واسرع حريث فضرب عظافا بمقبض السيف فى صدره فسقط على الأرض وطار السيف من يده ، ولم يرد حريث قتله لكىلا ينسب قتله الى غيره ، فقيده وأخـــذه حتى يقتله فى حى كندة أمام القوم .

وركن بنو كلاب الى الفرار ، وولوا الأدبار وسبيت نساؤهم ، وأخذت أموالهم .

واسترعت الأنظار فتاة تبكى وتندب حاسرة الرأس والوجه . وتأملها حريث ، فأخذ بجمالها وفتن بها ، فتقدم منها وقال لها :

ــ ياذات الجمال ، على من هذا الندب والإعوال ؟

فنفرت ليلى وقالت :

ــ ياكلب العرب وأخس من ضرب فى البيداء وتدا ... لقد قتلتم الرجال ونهبتم الأموال ، فما الذى تريدون من ربات الحجال ؟

ــ أخبرينى ياحمـــامة الوادى ... على من تندبين ؟ ومن فارس الحرب الذى تبكين عليه ؟

فأشاحت عنه وراحت تبكى ...

وسأل حريث عنها فقيل له : هذه ليلى بنت عطاف تندب وتذكر ابن عمها الصحصاح ، وهو الذى تعنى بفارس الحرب والكفاح .

فزاد هيامه بها ، وتحركت فى فؤاده رقة لها ، فخلع عمامته وغطى رأسها ونادى على قومه :

— يا آل كندة ...

— لبيك يا فارس البيداء ...

— ارفعوا السيف عن بنى كلاب ، فقد أعطيتهم الأمان .

وأمر باحضار الأسرى ، وفيهم عطاف ، فقال لهم حريث :

— يا بنى كلاب ، لقد أسلفتم لنا أمثالها ، وقتلتم من كندة أبطالها ، وأخذتم أموالها ، وقتل عطاف هذا أبى ، وربيت من بعده يتيما ، وقد أردت ألا أبقى منكم صغيرا ولا كبيرا ، ولكن الآن ... قد غير الله ما فى القلوب فعفوت عنكم ووهبت لكم أنفسكم وأموالكم بحيث لا يفقد أحد منكم عقال بعير ... وذلك بشرط لى عليكم .

قالـــوا :

— وما الشرط ؟

— نظرت عندكم فتاة ذات وجه مليح ، ومنطق فصيح ، فأردت أن أشركها نعمتى وأسكنها مهجتى ... لقد آلمنى بكاؤها وأشعل قلبى أنينها وشكواها .

ثم قال وهو يشير بيده إلى بيت عطاف :

— انها صاحبة هذا الخباء .

فقال عطاف وقد انفتح له باب الفرج :

— هى ابنتى ليلى ، وهى لك — أيها الأمير — أمة .

قال حريث :

ـــ يا أمير بني كلاب ، اني ذاهب من الغد ، وأريد أن يصلح أمر ليلى في يومنا هذا لترحل معي في هودج مصون إلى ديارنا حيث أقيم الأفراح ويتم الزواج والزفاف ، واني أدعوك وسادات قومك إلى القدوم علينا بعد سبعة أيام لأقدم لكم من الإكرام ما يليق بكم ، وأدفع اليك من المهر مايليق بابنتك .

ـــ حبا وكرامة يا أمير كندة .

فرح الجميع بذلك ، ماعدا ليلى ... فقد تضاعف حزنها ، واشتد بكاؤها ، وزاد نحيبها . دخل عليها أبوها فقال لها :

ـــ قد علمت يا ابنتي أني كنت مشرفا على الهلاك ، وكذلك قومك وعشيرتك وقد نجانا الله من الشدة بسببك ، اذ تعلق بك حريث وأطلق الناس من أجلك ، وانه بطل مشهور ، وما يصلح لك أحد زوجا مثله ، والصحصاح قد قتل أو وقع في الأسر وهلك .

فقالت ليلى غاضبة ثائرة :

ـــ يا أبي ، متى كان العرب يخلصون أنفسهم بالعذارى ... ؟ أما الصحصاح فاننا لو لم نكن طالبناه بالصداق لما تشرد في الآفاق ، ولما طمع فينا ذئاب العرب . لو كان هنا الآن حيا لحماني وحمي قومي وعشيرتي من هذا الهوان .

شعر عطاف بالندم على ما كان منه مع الصحصاح ، وأحس بحقيقة الموقف الذي صار اليه ، اذ اضطر أن يزوج ابنته ليفدي نفسه ... ولكنه تمالك وقال :

ـــ ان الزواج على أي حال خير من عار السبي ... وقد اتفقت على زواجك من هذا الرجل وانتهى الأمر ، ولو امتنعنا عنه ما أبقى منا باقية ، فاصبري يا ابنتي عسى الكرب الذي وقعنا فيه أن يكون وراءه فرج قريب .

قال عطاف ذلك ، وانزوى بعيدا عن العيون يذرف الدموع .

— ١٩ —

سار حريث يقطع مراحل الطريق حتى بلغ حى « غانم بن زاهر » الذى كان الصحصاح قد خلصه من القتل وقتل عمه وزوجه بلبنى حبيبته ، وكان غانم حزينا لغيبة الصحصاح ، فقد حمل الهدايا وصار إلى بنى كلاب عدة مرات وسأل عنه ، فقيل له : ما وصلنا عنه خبر ولا وقعنا له على أثر ... فحزن عليه ولبس ملابس الحداد ، وأرسل رجاله يبحثون عنه فى كل مكان .

وكان حريث ابن خالة غانم ، فلما نزل عنده استقبله بالترحيب ونحر له وأكرمه ونظر إلى بنى كندة فشاهد عليهم آثار الحرب ، وفى صحبتهم هودج محلى بالديباج والذهب الوهاج ، فرأى حرجا فى أن يسأل حريثا عمن فيه ... وأرسل جارية تسأل وتعرف حقيقة الأمر . فمضت الجارية وعادت باكية تتحسر ... فقال لها :

— ويلك ... ما الخبر ؟

— يا مولاى ، انها من عند من هو أحب الناس اليك .

— أحب الناس إلى الصحصاح بن جندبة الكلابى .

— أحسن الله لك فيه العزاء وصبرك على البلاء .

— ويلك ... من أين علمت بذلك ؟

— يامولاى ، هذه ابنة عمه ليلى بنت عطاف .. اغار عليهم حريث وأخذها ليتزوجها فى قومه .

— والصحصاح ؟

ــ قالوا إن أخباره قد انقطعت ، ولو كان حيا ما صبر عن ليلى .

ــ والله ما يرضى بهذا إنسان . ولقد كان القتل لعطاف أحسن من هذا .

وانتصب قائما ، وقصد الى حريث وقال له :

ــ أيها الأمير ، انك موفق فى جميع أمورك إلا فيما فعلت هذه المرة .

ــ ماذا تعيب على يا ابن الخالة ؟

ــ ان العرب قد جرت عادتهم أن يغير بعضهم على بعض فيؤخذ الثأر وتسبى الإماء ، أما التعرض للعربيات وأخذهن مسبيات فهذا لايجوز وماجرت به العادة .

ــ ياابن الخالة ، أنا ما أخذت عربية مسبية ، وأنا أخبرك بالقضية ...

وحكى له ما حدث ، فقال غانم :

ــ أيها الأمير ، انتبه من غفلتك ... ان الصحصاح ما وصل عنه خبر ، وما علم أهل الحى أميت هو أم حى ، فان كان حيا فهو لابد راجـــع وفاتك بك . وأنى أنصحك ياابن الخالة أن ترد ليلى الى خدرها ، وانتظر ... فان تحقق موت الصحصاح فتزوج بها ، وان رجع سالما فهو أحق بها .

ضحك حريث وقال :

ــ انى مفتون بليلى وعاشق لحسنها ... أكثر من الصحصاح ، والهوى يدفع الإنسان الى المخاطر ، على أنى لا أخاف الصحصاح ولا قومه ، وكم أفنيت أمثاله من رجال أشداء ...

ــ كلمة أخيرة أقولها لك بصدق ... ان الصحصاح صنع معى جميلا لا أنساه ، وأنت تعرفه ، فله على حق واجب الأداء ، وأريد أن تترك ليلى وتهب لى هذا الصنيع بحق ما بيننا من قرابة .

ــ ياابن الخـــالة ، إن أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع ، واعلم أن ليلى الكلابية مثل ليلى العامرية ، وأنا فى هواها مثل قيس بن الملوح ..

— واعلم أننى لن أضيع حق الصحصاح ، ولن أمكنك من الوصول الى ليلى ولو تلفت نفسى ... فغضب حريث وهب واقفا يقول :

— أتبلغ جرأتك معى الى هذا الحد ؟ دونك القتال وليكن السيف هـــو الحكم بيننا ...

وركب الفارسان ، والتحم الفريقان ، وارتفع الضجيج ، وسالت الدماء ... ونادى غانم :

— ياحريث ، مالنا فى هلاك القبيلتين من حاجة ، أبرز الى وأبرز اليك :

فبرز اليه ، وجال الفارسان فى الميدان ، وتبادلا الضرب والطعان ، ثم سدد حريث ضربة الى صدر غانم ولكنه عدل بها الى صدر الجواد ،فانقلب به ،وانقض عليه ، وأخذه أسيرا وأمر رجاله أن ينهبوا الأموال ، وساروا حتى نزلوا بمكان فيه ماء يعرف بالعذيب ، وهو على بعد ثلاثة أميال من بنى كلاب ، وخمسة فراسخ من حى كنده .

— ٢٠ —

لما صار الصحصاح ومسلمة وجيشهما على مقربة من بنى كلاب. أقبل الصحصاح على مسلمة وقال له :

— انى أرى أن تبقوا هنا ، وأمضى أنا ونجاح حتى ندخل الحى ليلا ، ونتنسم الأخبار ونعرف الأحوال .

فقال مسلمة ضاحكا :

— وخاصة أحوال ليلى .

— الحق يا أمير أن نار الشوق قد اشتعلت بقلبى ...

وسار الصحصاح وعبده نجاح ، وظلا سائرين حتى اشرفا على « ماء العذيب » وكان من الاتفاق الموفق أن وقع ذلك عقب نزول بنى كنده فى ذلك المكان ، فنظر الصحصاح ، فرأى خيلا وإبلا وخياما مضروبة ورجالا ونساء كثيرة ، وسمع غناء وطبلا وجلبة وضوضاء ، فقال لنجاح :

— هيا نقترب منهم لنسأل عن حالهم ونعلم من أى العرب هم .

وقصدا مضربا على ربوة عاليه بعيدا عن بقية المضارب ، واقترب الصحصاح وهو ينشد بصوت عال ويقول :

وحسبك ذما أن تبيت بشبعة وحولك أكباد تحن الى الأكل

فعلم صاحب البيت أنه غريب يريد الطعام ، فقال لتابعه : انظر من نزل بنا ، فخرج التابع ورجع يقول :

— غريبان يريدان الضيافة .

— على الرحب والسعة .

ثم أمره فأعد لهما جفنة من الثريد واللحم وخرج بها اليهما ، فلما وضعها بين أيديهما قال له الصحصاح :

— اجلس وكل معنا ، حتى يطيب لنا طعامكم .

فجلس وجعل يأكل هو ونجاح ، وقال للصحصاح :

— مابالك لا تأكل ياوجه العرب ؟

— انى على كفاية ولدى مايمنعنى الآن من الطعام ، ولكن صاحبي هذا جائع فكل معه بارك الله فيك .

وجعل يتلطف معه فى الحديث ويستدرجه فى الكلام ، حتى قص عليه قصة القوم كلها ، وما عرف الصحصاح حكايه زواج حريث من ليلى حتى كادت روحه أن تخرج من بين جنبيه ، ولكنه ملك نفسه وكبت غضبه وقال :

— وأين ليلى ؟

— فى هودج وسط المضارب .

واطمأن الصحصاح بعض الشىء ، وهو يستمع إلى الرجل يسترسل .

— ولم تزف بعد إلى حريث ، لأنه يريد ان يدخل بها عند قومه وبين أهله ، وسترحل فى صباح الغد ، وسيصل الينا عطاف بعد أيام قلائل .

شكر الصحصاح للرجل ، وانصرف وهو يقول لنجاح . وفى قلبة آلام وجراح :

— نفسى تحدثنى أن أهجم عليهم وأشفى غليلى بسفك دمائهم ، ولكنى أخشى أن يلومنى مسلمة ويقول لى : هذا لايليق بصاحب الأمارة ، وانى والله لتهون على امارة العرب ..

وقاطعه نجاح قائلا :

— لايامولاى ، ليس هذا من السداد . انظر فى تدبير آخر .

سكت الصحصاح قليلا ثم قال :

— انى راجع إلى مسلمة فى الحال ، وراقبهم أنت وحاذر أن تقرب من هودج ليلى حتى لاتراك .

وركب الصحصاح « مزنة » وعاد يطير بها إلى مسلمة والجيش ، وهو طائر الفؤاد مسلوب اللب . وأخبر مسلمة بما رأى وما سمع ، فقال مسلمة : الحمد لله على أن الأمر فى بدايته ، ولو تم لأضرم فى قلبك النار الى الأبد ، والآن ماذا تريد أن تصنع ؟

— لقد هممت أن أهجم عليهم ، وأعمل فيهم السيف .

— أنت اليوم أمير العرب ، وهم إليك يلتجئون ، وبك يستغيث المستغيثون ولا ينبغى لك أن تخاطر وترمى بنفسك فى أضيق المسالك . وسنواجه القوم بحقيقتنا ، فان إعتذروا وسلموا عاملناهم بالإحسان ، فالعفو بالملوك أجمل والتجاوز من القادرين أفضل .

وتحرك الركب جهة ماء العذيب ، وسار الصحصاح أمامه ، ولكن مسلمة لحظ أنه مضطرب ذاهب اللب ، يأخذ يسارا ثم يتجه يمينا ، فأشفق عليه وعذره لشدة مابه من القلق ، وقدم بين يديه دليلا يعرف مسالك الصحراء وأماكن الباديه ، ودنا منه وهو يهمس له .

— ياأمير العرب ، ارفق بنفسك ، فلا بأس عليك .

— أن المحب مولع بسوء الظن ، وأخاف أن يسبقنى إليها فأموت غيرة وكمدا .

— لابد أن تصل إلى مطلوبك بإذن الله تعالى .

واستمر مسلمة يحدثه ليؤنسه ، ولما حكى له الصحصاح حكاية غانم ووقوفه أمام حريث ، اهتز مسلمة من هذا الوفاء وقال : انه سيكون لنا منذ اليوم صديقا ، ونعم الصديق .

ولما وصلوا إلى موضع فى الطريق الذى لابد أن يسلكه بنو كندة إلى ديارهم ، نزلوا وضربوا الخيام ورفعوا الأعلام ، وامتلأ بهم المكان . ولم يلبثوا إلا قليلا حتى طلع عليهم غبار بنى كندة وسمعوا صهيل الخيل ، فقال مسلمة :

ـ هؤلاء بنو كندة ، فخذوا الأهبة ، وأظهروا لهم التحمل .

ونفخ فى الأبواق ، فتأهب جيش الشام ، وركب الفرسان من كهول وشباب ، وعلت أصواتهم بمختلف اللغات واللهجات ، إذ كان فيهم العرب والعجم والسود والبيض ، وليس فيهم إلا كل محارب ، قد حنكته التجارب ، لا يولون الأدبار ولا يهابون الأشرار .

ظنَّ بنو كندة أن القيامة قد قامت وحشرت جيوش الدنيا فى ذلك الصعيد ، فتسمروا فى أماكنهم ولم يجسروا على التقدم نحوهم .

وأمر مسلمة أربعين رجلا أن يأخذ كل واحد منهم فى يده علما مطرزا بالذهب ومكتوبا عليه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وقال : اذهبوا إليهم وقولوا لهم : إن الأمير مسلمة ابن أمير المؤمنين يأمركم بالترجل والسعى الى أمير العرب الذى وجبت طاعته على كل من دق فى البيداء وتدا وشد طنبا .

ترجل بنو كندة وقالوا : السمع والطاعة ... وتقدموا خاضعين وفى أولهم حريث وقد طار عقله خوفا وفزعا ... وكان عددهم خمسة آلاف ، فجعل مسلمة على كل واحد منهم ثلاثة أبطال يحرسونه ويقيدونه بالحبال .

ثم أمر مسلمة ، فقصد الأربعون رجلا بأعلامهم الى هودج ليلى ، وساقوا البعير برفق وهم يقولون : يا أميرة العرب ، سعد سعدك وعلا مجدك .

ونظرت اليهم ليلى ، فظنت أنه مروان بن الهيثم الذى تعلم أنه أمير العرب ... قد بلغه أمرها ، فأتى ليأخذها من بنى كندة وينقذها من الشدة ، ففرحت ، ولكنها تذكرت الصحصاح فتحسرت وبكت ... ثم لمحت « نجاح » عبد الصحصاح يقترب من الهودج ، وسمعته ينادى :

ـ ياسيدة العرب ، ذهبت أسباب البكاء والنواح ، وجاء الفلاح ، وهذا عبدك نجاح ... فصاحت فى عجب ولهفة :

ـ يانجاح ... ماوراءك يانجاح ؟ ؟

ـ يامولاتى ، ماهذا وقت الكلام ، امضى الى سرادق الصحصاح ، فنجم السعادة قد لاح وزمان البؤس قد ولى وراح ...

وضربت لليلى خيمة خاصة بجوار السرادق الكبير الذى جلس فيه الصحصاح ومسلمة ، وراحت فى دوامة من التفكير ... أحقا هنا الصحصاح ؟ ؟ وكيف تأتى له كل هذا الذى هو من سمات الأمراء والملوك ؟؟ أم أن العبد يخـــدعها ويكذب عليها وأنها تساق الى مروان بن الهيثم ... اذا كان هذا فياويلاه ... انتقلنا من ظالم الى ظالم ... ورفعت صوتها دون أن تشعر : واصحصاحاه .

وفى هذه اللحظة دخل عليها الصحصاح ... ولما أبصرته وتحققته صرخت من شدة فرحتها صرخة عالية ،وغابت عن الوجود ، ووقعت على وجهها مغشيا عليها . وجلس الصحصاح عند رأسها وقد طفرت الدموع من عينيه ، وجعل يربت عليها ويداعب خدها بيده ، لعلها تفيق من غشيتها ، وظل على هذه ساعات من الليل ، ونقل الخبر الى مسلمة فجزع ، وجعل يبعث الخدم إلى خيمة ليلى لينقلوا اليه حقيقة الحال ، ولم ينم حتى الصباح ، حينما أخبروه أنها عادت الى وعيها وأفاقت مما ألم بها .

- ٢١ -

تحركت ليلى ، وحاولت أن تكشف ماحولها مدهوشة ... فانتعش الصحصاح وقال لها :

— ياابنة العم ، ذهب الهم والغم ، إنى أنا الصحصاح بن جندبة .

— الصحصاح ... ؟ الحمد لله على رجوعك سالما ... ولكن هل أنا فى منام ؟؟

— كلا يا ابنة العم ، أنت فى تمام الحقيقة .

— أين كنت يا صحصاح كل هذه الشهور والأعوام وماذا جرى لك .. ؟ بالله خبرنى ياابن العم ..

وقص عليها ماحدث له ، وهى تصغى فى عجب ودهشة وفرحة ما مثلها فرحة.

* * *

جلس الصحصاح ومسلمة فى السرادق الكبير ، وكان أول داخل عليهما «غانم» اذ فكت قيوده وأتى به مكرما تفسح له الحراس الطريق ، على حين وقف حريث على باب السرادق مغلول اليدين ذليلا .. وما وقع نظره على غانم حتى زاد همه واشتد كربه وأتى اليه عبد من عبيده يهمس اليه : يامولاى ، قد أخذت ليلى ... فقال له : دعنا من ليلى وغيرها ، فقد لحقنا الذل والوبال ، وما ندرى مانحن فيه ... هل هؤلاء قوم من الجن تصوروا لنا فى صورة الآدميين ... هيهات أن نرجع إلى ديارنا سالمين .

دخل غانم السرادق وهو لايدرى شيئا مما حوله ، ولما رآه مسلمة مطرقا قال له : ارفع رأسك أيها الفتى ، فلا بأس عليك قل لى : ما الذى أوقعك فى أيدى هؤلاء القوم ؟

حكى له حكايته مع حريث ، فقال له مسلمة :

ــ وما الذى حملك على ذلك ؟

ــ حملنى على ذلك حب الصديق الذى أسدى الى معروفا لا أنساه ... هو الصحصاح بن جندبة الكلابى الذى طالت غيبته وطال حزنى عليه ، ولا أعلم اين هو لرحلت اليه أينما كان وفديته بنفسى ، ولن يطيب لى عيش فى هذه الدنيا حتى أعثر عليه .

تأثر الصحصاح ، وكان مسلمة قد أشار عليه أن يجلس بحيث لا يتحقق منه غانم ، وحدث نفسه بأنه لم يفرح بالإمارة ولا بأى شىء قدر فرحه بوفاء غانم له .

وقال مسلمة لغانم :

ــ نعم الصديق أنت . أبشر يا غانم فإن الصحصاح هو الآن أمير العرب من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان . .

سجد غانم شكرا لله . وقال مسلمة :

ــ إذا رأيت الصحصاح . . هل تعرفه ؟

ــ نعم أعرفه . . ولو أنى ما رأيته إلا مرة واحدة . .

ــ هذا هو الصحصاح . .

ونهض إليه الصحصاح وضمه إلى صدره وقبله ، وأجلسه إلى جانبه وهو يقول له :

ــ جزاك الله خيرا على مروءتك ونخوتك . .

وأحضر الطعام فأكلوا معا ، وصار غانم موضع التكريم والترحيب ، حتى رحل إلى قومه معززا محملا بالهدايا النفيسة .

وأدخل حريث ، فقال له مسلمة :

ـ أتعرف من هذا الجالس إلى جانبي يا خريث ؟

ـ لا يا سيدى . .

ـ هذا أمير العرب . . هذا سيف أمير المؤمنين فى البادية . . هذا الصحصاح بن جندبة .

ـ كلنا عبيده يا مولاى . .

ـ هل تعرضت لابنة عمه وخطيبته ؟

ـ وحق فالق الإصباح ما نظرت لها وجها إلا وقت الواقعة . .

ـ هذا مما يخفف عنك . .

والتفت إلى الحراس قائلا :

ـ أخرجوه حتى يرى أمير العرب رأيه فيه وفى قومه .

ولما خرج إلى من معه سألوه عما جرى ، فأخبرهم وقال لهم : إن مسلمة يميل إلى العفو عنا ولكن أمرنا موقوف على رأى الصحصاح فينا ، فقال له رجل منهم يقال له « المزاح » :

ـ يا حريث ، ما رأينا عروسا أشأم من هذه العروس . .

وتابع ساخرا :

ـ لقد حلت بك بركتها . . وعمت بنى كندة . .

وكان حريث فى شغـــل شاغل بالتفكير فى مصيره وما عسى أن يصنع به الصحصاح . .

* * *

قال مسلمة للصحصاح :

ــ يا أمير العرب ، ماذا تقول فى هؤلاء القوم ؟

ــ ما أراهم يستحقون إلا ضرب الرقاب . .

لا تنس إنك الآن مولى عليهم ، والعفو بك أجمل . وإذا كان حريث قد أساء فكن أنت محسنا ، وأنت تعلم أن عمك قتل أباه وأنه طلب الثأر منه وقدر عليه ولكنه عفا عنه ، وعلى أى حال فإن بنى كندة وغيرهم أصبحوا الآن تحت إمارتك وفى رعايتك ، وأصبحت أنت مسئولا عن أمنهم وأرواحهم وأموالهم . .

شعر الصحصاح ــ وهو يستمع إلى مسلمة ــ أنه كان مندفعا على طبيعته البدوية ، وانتبه إلى حقيقة وضعه الجديد كأمير مسئول ، فقال :

ــ لقد أنعم الله على بك يا ابن أمير المؤمنين ، والحمد لله الذى يسرك للخير .

ونودى فى بنى كندة : اذهبوا إلى دياركم فإن أمير العرب قد عفا عنكم .

— ٢٢ —

جمع مروان بن الهيثم قومه بنى سليم ، وقال لهم :

— يا بنى عمى ، لقد أتانى من عبد الملك بن مروان كتاب يخبرنى فيه أنه عزلنى عن إمارة العرب وولى مكانى الصحصاح بن جندبة الكلابى .

دهش القوم ، وظهرت على وجوههم علامات الغضب ، واختلطت الأصوات والهمهمات ، ثم علت الأصوات تختلف نبراتها ويقطع بعضها بعضا . ويعلق بعضها على بعض ، ويسودها جميعا روح الغضب :

— نحن أحق من بنى كلاب . .

— بنو كلاب ماهم عندنا إلا مثل الكلاب .

— من هو عبد الملك بن مروان ؟ ؟ نحن لا نطيع أحدا من البشر ، لا من البادية ولا من الحضر .

— اننا نأخذ الأموال وتخدمنا الرجال وتهابنا الأبطال ،فاذا ذهبت عنا الإمارة طمع فينا كل من دق وتدا على أرض البيداء .

— نحن لا نصبر على الذل والهوان ولنا السيوف الصقال والرماح الطوال .

— ما للبيداء أمير الا شيخ بنى سليم .

ولما هدأت الأصوات رفع القاضى صفوان رأسه وكان مطرقا يفكر ، وقال يخاطب مروان :

— وعلى من عوات أيها الأمير ؟ أتخرج على الخليفه وتشق عصا الطاعة ؟

وكادت الأصوات تعلو وعلامات الاستنكار تبدو ، لولا أن أشـــار مروان بالسكوت قائلا :

— دعونى أناقش القاضى .

وقالت الأصوات :

تـكلم أيها الأمير ... تـكلم أيها الأمير .

قل لى أيها القاضى لماذا اعترضت الملائـكة لما أراد الله عز وجل ان يستخلف بنى آدم فى الأرض وقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ... أليس ذلك لأنهم علموا أنهم قد عزلوا واستخلف غيرهم ؟ فاذا كان ذلك قد حدث من الملائـكة وهم لا يأكلون ولا يشربون فـكيف نسكت ونطيع ونحن فى حاجة إلى الأموال التى نأخذها من الولاية ؟

علت أصوات الاستحسان ، وتطلعت الوجوه إلى القاضى كأنها تتحداه وترى ماذا عساه يقول ، ولـكن القاضى رد قائلا :

— اعلم يا مروان أن الملائـكة الذين قالوا ذلك كانوا من العاصين وقد طردوا من رحمة الله .

وسكت مروان ، وترددت الهمهمات .

وبينما هم على هذه الحال دخل فارس من أبطال بنى سليم يسمونه « آفة الدنيا وشيطان الانس » وقد علم بما جرى . ووقف أمام مروان يقول بصوت كالرعد :

— أيها الأمير ، دعك من الأقوال وهيا إلى الأفعال . كيف نذل لبنى كلاب ونحن أسود الغاب ؟

إن كنت على وجل منهم فدعنى أسير وحدى اليهم .

قال مروان :

ــ مهلا يا آفة الدنيا ... الصواب أن نفكر ونتدبر ، ولا نندفع إلى مالا تحمد عقباه . إن الناس قد تحدثوا بشجاعة الصحصاح وشدة بأسه فى القتال والكفاح ، وقد ذل له بنو كندة ، وبالأمس قتل فرسان بنى مخزية وتركهم طعاما للوحوش ، وقتل الغطريف والسفاك ابن عامر وغيرهم من الأبطال.

واليوم قد أتى من الشام ومعه مسلمة بن عبد الملك بجيش كبير .

قال آفة الدنيا وشيطان الإنس :

ــ منك الأمر والتدبير ، ومنا لك الطاعة والى الحتوف نسير .

فقال مروان :

ــ ان القدوم على الأهوال ما هو إلا من فعل الجهال .

جمع مروان بن الهيثم نحو ثلاثين ألف فارس ، وسار بهم حتى كان على عشرة فراسخ من بنى كلاب فكمن هناك ودعا « النجاب » الذى يحمل الرسائل ، وقال له :

ــ سر إلى حى بنى كلاب وأبلغ مسلمة والصحصاح أننا أتينا طائعين لأمر أمير المؤمنـــين .

ولما سمع آفة الدنيا ذلك قال لمروان :

ــ ألهذا سعينا يا أمير ؟

ــ لا ... ان الحرب تدبير .

وسكت مروان قليلا ثم قال لآفة الدنيا :

ــ ليس من الصواب أن نجتمع كلنا فى مكان ، فلتكمن كل جماعة فى موضع بحيث نحيط ببنى كلاب ونطبق عليهم من شتى الجهات .

ــ فلا نترك لأحد فرصة الفوات .

* * *

دخل نجاح على الصحصاح وهو يقول لاهثا :

— ياسيدى ، أمر عظيم وخطر جسيم ... إن مروان بن الهيثم جاء بقومه وفرسانه وفى نيته الشر والغدر ... كمنوا قريبا من الحى ، وفيهم فارس يدعى آفة الدنيا وشيطان الانس ... ضمن لمروان قتلك يامولاى ... بعث مروان بجواسيسه يتعرفون الأحوال وينقلون اليـــه الأخبار .... لقيت واحدا منهم أعرفه من زمان وحكى لى كل شىء .

قال الصحصاح وهو يتأهب للخروج بعدة القتال :

— اذهب واعرف لى أين يكمن آفة الدنيا .

— ماذا ستفعل يا مولاى ؟ أتخاطر بنفسك وحدك فى ملاقاة هذا الجيش ؟

— لا ، ولـكن أريد أن أجعل هذا الشيطان عبرة لابن الهيثم ...

— سمعت أنه لا يأكل إلا من صيده ، وأكثر صيده السباع ، ولا بد له من الخروج فى هذه الليـلة يطلب سبعا يقتنصه ، لأن السباع تدنو فى الليل على ضجة المعسكر . ولـكن يامولاى... هذه المخاطرة غيرمحمودة العواقب

— أقصر يا نجاح ... واذهب كما قلت لك .

وذهب نجاح ، ثم عاد بعد فترة يقول :

— لقد نزل آفة الدنيا الىوادى الذئب ...خرج من خيمته وليسمعه سوى عبده . راقبته وتبعته حتى نزل الى الوادى .

— وهل عرفت أنه هو ؟

— نعم ، سمعته يقول لعبده : ان لم أقتل الصحصاح ومسلمة وأسلم الامارة لمروان فلست شيطـان الانس .

انحدر الصحصاح على ظهر « مزنة » الى وادى الذئب وهى تمرق به كالسهم المنطلق .

— ادم سيفك وسلم حصانك أيها الشيطان .

سمع شيطان الانس هذا الكلام ، فالتفت ورأى الصحصاح على ضوء القمر ، فضحك ساخرا ، ثم حمل عليه ، فتطاعنا حتى شهد كل منهما للآخر بالفروسية ، وصرخ آفة الدنيا فى الصحصاح صرخــة هائلة ، وهز الرمح فى يده وضرب به الصحصاح فى صدره ، فالتقاها بالترس وجال يطاوله ولم يرد قتله ،حتى يأخذه أسيرا فصار يلف به ويدور حتى أتعبه وحيره ، ثم ضربه بمقبض الرمح فى صدره فألقاه على ظهره ، وأسرع بالنزول اليه ، وأوثق كتفيه ، ورجع به يجر السير ، حتى وصلوا الى معسكر مسلمة .

كان مسلمة قد تفقد الصحصاح فلم يجده فقلق عليه . ولما رآه يدخل اطمأن باله وقال له :

— أين كانت الغيبة يا أمير العرب ؟

— قد سمعت بحديث « آفة الدنيا وشيطان الانس » .

— من هو هذا الشيطان ؟

قال الصحصاح ساخرا :

— انه شيطان لايطاق وعلقم مر المذاق .

وقص الصحصاح على مسلمة ما كان من أمر مروان ، وما وقع له مع فارسه الشيطان ، فقال مسلمة :

— لله درك ياصحصاح ... ولكن الأمراء لا يفرطون فى أنفسهم هكذا .

— يا مولاى ، لكل أجل كتاب ، وقد قصدت أن يصل مروان فيرى شيطان الإنس مقيدا مرميا بين الكلاب ، فيعتبر به ويقلع عن عناده .

— وأين شيطان الإنس ؟

— لقدقيدته وربطت معه كلبا ضخما مثله ينهشه اذا تحرك .

— ٢٣ —

أشرف بنو سليم على مضارب بنى كلاب ، وكان رسول مروان قد سبقهم الى مسلمة وأبلغه رسالته وأنه قادم فى الطاعة .

قال الصحصاح لمسلمة :

— ماذا نصنع ؟

— فى أى شئ ؟

— فى بنى سليم .

— اصبر حتى نرى .

— أنى أخشى ان ينفذ مروان خدعته وقد علمت أنه ينوى الشر والغدر ... ألا تركب للقائهم ؟

— لا ، والله لا نرفع لهم رأسا الى أن ينزل ابن الهيثم ويمشى الينا طائعا ... حتى نشعره بالهوان .

— لقد أسعدنى الله بعنايتك ، لازلت موفقا للخير .

نزل بنو سليم دون أن يهتم أحد بهم ، وجعلوا ينظرون الى المضارب تلمع عليها الأعـــلام المذهبة وأقيم معسكر لا أول له ولا آخر ... وانتظر مروان أن يخرج اليه أحد ، ولـكنه لم يجد غير التجاهل التام ... وجاءه من أخبره بأنه شاهد « آفة الدنيا » مقيدا مربوطا الى كلب فى حراسة خمسة من العبيد .

استقـــر فى نفس مروان أنهم لم يعبئوا به لوثوقهم من قوتهم ، وشعر الآن فقط ان الإمارة قد زالت عنه ولم يعد سوى واحد من الناس .

أقام بنو سليم خيامهم ونزلوا ، وقعد مروان فى خيمته ينتظر الاذن له بالقدوم على الصحصاح ومسلمة . وبعد ساعات من الانتظار والقلق وصل الحاجب الى خيمة مروان ودخل عليه وقال له:

— أن أمير العرب قد أخبر بوصولكم ، وقد أذن لك بالدخول عليه .

ولما اقترب مروان من سرادق أمير العرب تقدم اليه أحد الحجاب وقال له : ترجل ياسيدى ، فهذا حرم الأمير... فنزل عن حصانه ، وقد راعه ذلك واستعظمه ولكنه لم يجد بدا من الامتثال .

وبينما هو واقف أمام السرادق أقبل فارس يحيط به الجنود فى تعظيم واكبار عرف فيه مسلمة ، وكان قد رآه من قبل فى قصر الخلافة بدمشق ، فسعى اليه وسلم عليه ، وسار إلى جانبه يريد الدخول ، ولكن الحاجب منعه وأفسح لمسلمة .

وبعد ساعة من الهوان أذن لمروان بالدخول ، فدخل . رأى الصحصاح يتصدر المكان والى جانبه مسلمة ، وقد امتلأ السرادق بشيوخ القبائل الذين جاءوا من قريب ومن بعيد يهنئون الصحصاح ويؤيدون امارته :

ونهض مسلمة ، وحمد الله وأثنى عليه ، وأعلن فى القوم أمر أمير المؤمنين بتولية الصحصاح بن جندبة الكلابى أميرا للعرب ، وعزل مروان بن الهيثم ، وحث الجميع على أن يكونوا كلهم مترابطين متعاونين ، وأن يكونوا أعوانا لأمير المؤمنين وأن يسارعوا الى الاستجابة اذا دعاهم لقتال أعدائه وأعداء العرب .

فأعربوا جميعا عن طاعتهم لأمير المؤمنين وأمير العرب ، وأبدوا استعدادهم لقتال كل طامع فى بلاد العروبة والاسلام .

وتقدم مروان الى الصحصاح ، وأعلن طاعته وتأييده ودعا له .

والتفت مسلمة الى الصحصاح وقال له :

ــ يا أمير العرب ، لمثل هذا اليوم جعلت الهدايا والأموال .

فأمر الصحصاح ، فوزعت الأموال والهدايا على الحاضرين من شيوخ القبائل وأكابر العرب ، وخص مروان بحلة فاخرة من حلل الشام . وأمر باحضار آفة الدنيا وشيطان الانس وفك قيوده ، وشمله بالعطاء والإنعام ، فدعا له وأثنى عليه قائلا : والله مايكون علينا سلطان إلا من كان مثل هذا فى الشجاعة والسماحة والإقــدام .

وقال الصحصاح للقوم :

ــ ياوجوه العرب ، لقد أوصانى أمير المؤمنين بتأمين الطرق الى بيت الله الحرام ، والمحافظة على أرواح الحجاج وأموالهم ، وقطع دابر بنى مخزية الذين يتعرضون لهم وينهبونهم ويقتلونهم ، فعليكم أن تراقبوا هذه الطرق فى موسم الحج ، واعلموا أن كل من يقطع الطريق على حجاج بيت الله فدمه مهدور ، وليس على من يقتله أى حرج أو عقاب .

وفى اليوم التالى أولم لهم وليمة عظيمة ذبح فيها مائة من الابل ومائتين من الغنم ، ثم انصرفوا شاكرين محملين بالهدايا والعطايا .

- ٢٤ -

جلست ليلى فى خبائها ومعها أمها وأم الصحصاح ، ودار بينهن الحديث حول الصحصاح ، وأعربت كل منهن عن سرورها بعودته ، وقالت ليلى :

ـــ الحمد لله الذى تفضل علينا برجوعه سالما ، وأعزنا به بعد المذلة والهوان ، وساق لنا على يديه هذه النعمة رغم الأعداء والحساد .

وقالت أم الصحصاح :

ـــ والله يابنيتى ماعاد الى عقل ووعى وما رغبت فى الحياة إلا بعد أن رأيته . لقد كانت المقابر أحب الى من البيوت ، والصوم أفضل عندى من الطعام ، انى حين رأيت الصحصاح صرت أبكى من الفرحة .

وتهلل وجهها وهى تقول :

ـــ حينما أدخلونى عليه كنت أظن أن المعسكر للأعداء وأنهم يسخرون منى ، ولكن عندما وقع بصرى عليه فى ذلك السرادق الأحمر الذى تلمع فيه الجواهر ، . كدت أكذب نظرى لولا أن شممت رائحته وأنا أضمه وأقبله وأقول له : أنت الصحصاح ؟ فيقول لى : نعم أنا الصحصاح وما وصلت الى هذه الحال إلا بدعائك ، والحمد لله على لقائك .

ثم قالت أم ليلى :

ـــ يابنيتى ، قد علمت ماحــــل بنا ، ولولاك ماسلم أبوك ، اجعلى يا ابنتى شكر هذه النعمة إصلاح ما بين أبيك وبين الصحصاح .

— انني أود ذلك يا أبي ، ولكن هيبته وخزيي مما كان من أبي يحولان بيني وبين الحديث معه في هذا الشأن .

— ياليلى ، ان لم يكن ذلك على يديك فمن يستطيع أن يخاطبه فيه ؟

— هذه امه وهي عنده اعز مخلوق وحق الوالدة لا ينسى .

قالت أم الصحصاح توجه الحديث الى أم ليلى :

— انني لا أنسى معروفك ومعروف عطاف الذي ربي ولدي وشمله برعايته ، ولو لم يكن مقهورا ما فعل شيئا مما يعاب ويؤخذ عليه . وان الصحصاح لا يمكن أن يتخلى عن عمه مهما حدث منه ،وسأقول له كل شيء ، ولابد أن يصفح عنه ويسامحه .

وقالت ليلى :

— لقد عفا الصحصاح عن الأعداء والأغراب حتى حريث بن الحجاج .... وأبي عمه ، والأقربون أولى بالمعروف .

وعلقت امها :

— نعم يابنتي ، الصحصاح صار اليوم أميراً للعرب ما يحمل لأحد ضغينة ، والحق ان الصحصاح من صغره كبير القلب ، وكان يقابل الاساءة من عمه بالإحسان والطاعة . ونحمد الله على أن أسعدك به .

* * *

كان عطاف حائرا يخشى أن يجافيه الصحصاح ، ولكن لما علم أن أمه كلمته في شأنه فقال لها : يا امي ، عطاف عمي ، وابو ليلى ، فكيف اجافيه ... لما علم عطاف بذلك فرح واستبشر ، وتوجه الى الصحصاح في مجلس الإمارة ، ولما دخل السرادق بعد الإذن له سلم ووقف ، فدعاه مسلمة الى الجلوس وقال له :

— لاتستصغر ياوجه العرب ما اسلفته في حق الصحصاح ، فاعترف بالخطأ ، وتقدم إلى أمير العرب بالطاعة .

والتفت مسلمة الى الصحصاح قائلا :

ـ ياأمير العرب ،انى اشفع اليك فيه ...

ـ قد عفوت عنه يا ابن أمير المؤمنين ..

وقال مسلمة :

ـ ياعطاف ، أن أمير العرب يخطب ابنتك ايلى ويريد عقد الزواج عليها .

فأجاب عطاف على الفور :

ـ يا ابن أمير المؤمنين ، ايلى ماهى إلا لأمير العرب ، وكلنا فى خدمته .

ثم عقد الزواج ، وأقيمت الولائم ، ونحرت الذبائح ، وعم الفرح ، ولم يدع أمير العرب أحدا من بنى كلاب ، صغيرا كان أو كبيرا ، إلا أفاض عليه بالمنح والعطايا .

وبعد ذلك استأذن مسلمة الصحصاح فى الانصراف والعودة إلى بلاده . فأعرب له الصحصاح عن رغبته فى أن يبقى معهم أياما أخرى ، وشكر له مابذل فى عونه وتأييده ، وقال له :

ـ والله ما أريد أن تفارقنى أبدا ..

فقال مسلمة :

ـ انى يا أخى لا أحب فراقك ، ولكن لابد من الرحيل اليوم أو غدا .

سار الصحصاح مع مسلمة يودعه ثلاثة أيام ، ثم تعانقا وتصافحا ، وافترقا وكل منهما يغالب دموعه ويكتم ألمه من الفراق .

- ٢٥ -

أقام الصحصاح فى إمارته ، ودانت له القبائل ، وجاءته الوفود من كل مكان فى البادية وقد ملك قلوب الرجال بمروءته. وأفاض على الجميع بعطفه ورعايته ، وانتشر الأمن فى ربوع الحجاز ، وأمنت الطرقات ، فلم يقطع أحد طريقا ، وصار الحجاج يذهبون ويعودون فى أمن وسلام، ويدعون له بالنصر والتأييد . وعاش عمه عطاف وسائر قومه بنى كلاب فى ظله ناعمين آمنين ...

قضى الصحصاح على هذه الحال عدة سنين جمع فيها كلمة العرب واجتمعت قلوبهم على محبته والولاء له . وأخيرا بدأ يتسرب إلى نفسه الملل والسأم من هذه الحياة الوادعة الرتيبة التى لم يكن يقطع رتابتها إلا رحلات قصيرة للصيد أو لزيارة بعض القبائل .

وبدأ شىء آخر يحاول أن يعكر صفو الأمن فى البادية . . مجرد رغبة بعض الفتيان وفرسان العشائر فى المغامرة مما يدفع بعضهم إلى التحرش ببعض ، ومنهم صعاليك يشعرون بضيق العيش فيحاولون السطو والإغارة .

كان يعمل على علاج ذلك بالحكمة التى اكتسبها من الاحتكاك بالخلافة ورجالها وخاصة مسلمة بن عبد الملك ، ومن شعوره بمسئولية الحاكم الحازم العادل .

ولكنه هو نفسه كان يشعر بالحاجة إلى مغامرة جديدة ، أو أى شىء يبعد عنه السأم .. تزوج مرة أخرى من إحدى القبائل متذرعا بأنه يفعل ذلك لتأليف القبيلة القوية المناوئة بمصاهرتها .. ثم لم يلبث أن رأى هذا الزواج لم يكن إلا سرابا ...

وشعر بأنه كان تفريطا فى حق « ليلى » الحبيبة التى اوصلته بالمغامرة من أجـــل الحصول عليها الى ماوصل إليه ، ولـكنه الآن فى حاجه إلى شى آخر يدفعه الى مغامرة أخرى ..

وحن الى دمشق ، وجعلت ذاكرته تسترجع مارآه هناك من ألوان الحضارة ، وامتد خياله الى ماوراء الشام من عالم غريب ... عالم آخر سمع عنه عجائب من خلال الحديث عن كفاح أبطال العرب ومقاومة المغيرين على بلاد الإســـلام من الافرنج . وكلب الروم الذى أشار إليه الخليفة فى حديثه معه ... من يكون ؟ وهل كف عن أطماعه فى بلاد العرب ؟

حتى كان ذات يوم فى رحلة من رحلات الصيد ... وراح من معه من رجال بنى كلاب وفتيانهم يعدون بالسهام وراء الغزلان والوحوش . وجلس هو ينظر تارة الى فرسه العنيدة « مزنة » وتارة أخرى يمتد بصره إلى نهاية الأفق ... وإذا هو يبصر من بعيد فارسا يظهر من جهة الشمال ، ودق قلبه ... ووقف ينظر إليه وهو يقترب ... وبادر إليه بعض رجاله يسألونه عن وجهته ، ويعلم الفارس أنه أمام أمير العرب ..

— يامولاى ، أنا رسول من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، بعثنى اليك بهذه الرسالة .

« بسم الله الرحمن الرحيم : من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الى أمير العرب الصحصاح بن جندبة الكلابى ، إعلم أن كلب الروم قد أغار بجيوشه على ثغور المسلمين واعتدى على أهلها وخرب ديارهم ، وقد أقض مضجعى وأقلق بالى .. فعندما يصلك كتابى هذا لايكون لك جواب إلا أن تضع رجالك فى الركاب ، ولا تترك فى البادية من يركب جوادا إلى أحضرته معك »

— سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ..

قال الصحصاح ذلك وهو يقبل كتاب الخليفة ، ثم نادى :

— الجهاد يافرسان العرب ... الجهاد ..

لم تمض إلا سبعة أيام حتى جاء فرسان العرب من كل مكان فى البادية ... أقبل مروان بن الهيثم على رأس عشرين ألف فارس ، وأقبل غانم بن زاهر فى أبطال قومه ، وحريث بن الحجاج فى بنى كندة ، حتى بنو مخزية جاءوا للجهاد ... وخرج أبطال بنى كلاب وفيهم عطاف فى صحبة الصحصاح .

واجتمعت الجحافل كلها فى مكان واحد ، وبلغت عدتها نحو مائة ألف من أبطال العرب ، ودقت الطبول ، وصهلت الخيول ...

ولوى الصحصاح عنان « مزنة » نحو الشمال وهو يقول فى أعماق نفسه : هذا هو الطريق . .

* * *

- ٢٦ -

خرجت « دمشق » كلها تستقبل فرسان البادية الذين أقبلوا إليها استجابة للدعوة إلى الجهاد ، واتجهت الأنظار إلى فارس منهم يتقدم الصفوف ويحمل الراية مرفوع الهامة منتصب القوام ، وقد بدت على ملامحه علامات العزم والبأس .

كانت الجماهير تهلل وتكبر فرحة مستبشرة وهى ترى هؤلاء الأبطال فى عددهم الكثير وعزمهم الشديد ينضمون إلى الجيش الكبير الذى تجمع فى عاصمة الخلافة لكى يزحف بعد حين إلى حدود الدولة العربية وسواحل الشام ليرد عنها الأعداء الذين أغاروا عليها قادمين من بلاد الروم بقيادة ملكهم « أرمانوس » .

قال رجل من أهل دمشق لآخر ، وهو يشير إلى ذلك الفارس البدوى :

ــ من هذا ؟

ــ هذا الصحصاح بن جندبة الكلابى أمير عرب البادية .

وسمعت ذلك إمرأة عجوز فقالت :

ــ أهذا هو الصحصاح يا ولدى . . الصحصاح الذى أنقذ مروة بنت الخليفة من اللصوص قطاع الطريق .

ــ نعم يا أمى هو .

وقال فتى صغير يصحب العجوز :

ـــ أنظرى يا جدتى ، الصحصاح قد نزل عن جواده أمام قصر الخلافة ، وها هو ذا رجل يعانقه ويصافحه . من هذا الرجل يا جدتى ؟

ـــ إنه مسلمة بن عبد الملك بن مروان .

قال الصبي متعجبا :

ـــ ابن الخليفة ؟ لا بد أنه يحبه لأنه أنقذ أخته . . ولكن قولى لى ياجدتى . . أين كانت بنت الخليفة عندما أنقذها الصحصاح من اللصوص ؟

ـــ كانت عائدة من الحجاز بعد أن أدت فريضة الحج ، وهاجمها اللصوص فى الصحراء وتغلبوا على من معها ، ونهبوا أموالهم ، فتصدى لهم الصحصاح وقاتلهم وانتصر عليهم ، وأعاد إلى « مروة » أموالها وأوصلها سالمة إلى دمشق .

قال الصبي وقد ازداد إعجابا بالصحصاح :

ـــ إنه بطل عظيم . . سيقتل عساكر الروم .

ثم أضاف متحمسا :

ـــ أريد يا جدتى حصانا وسيفا . . لأذهب معه إلى القتال . .

ـــ إنك يا بنى لا تزال صغيرا وهم يقتلون الأطفال والنساء .

ـــ لست صغيرا يا جدتى .

ابتسمت الجدة وربتت على حفيدها بحب وحنان .

* * *

دخل الصحصاح على عبد الملك بن مروان ، وسلم عليه ، فأجلسه الخليفة إلى جانبه ، ورحب به قائلا :

ــ أهلا بك يا أمير العرب ، كيف حال العرب بالبادية ؟

ــ على خير حال بفضل رعايتك يا أمير المؤمنين .

ــ لقد وصلت إلى الأنباء بما فعلت من تأمين طرق الحجاج والقضاء على أهل البغى وقطاع الطريق .

ــ نعم يا أمير المؤمنين ، وكان أخى مسلمة فى رحلته معى خير معين على ذلك ، وكان لهيبته وحسن توجيهه أثر كبير فى إخضاع العصاة وردهم إلى الطاعة .

ــ بارك الله فيكما .

وسكت قليلا ، ثم قال :

ــ وكيف حال العلاقات بين قبائل العرب فى البادية ؟ ألا تزال هناك إغارات ونهب أموال ؟

ــ لقد استطعت يا أمير المؤمنين أن أزيل أسباب النزاع بين القبائل وأوحدهم ، وأؤلف بينهم ، فعم السلام ربوع الديار ، وأصبحوا جميعا موالين لدولتكم وفى مقدمتهم الأمير السابق « مروان بن الهيثم » وقومه بنو سليم ، لقد جاء معى هو وفرسان قبيلته ، كما استجابت كل القبائل لدعوة الجهاد ، وهب كل قادر على حمل السيف والقتال ، حتى تجمع لنا جيش كبير هو الآن رهن إشارتكم وينتظر أمركم بالرحيل إلى الدفاع عن بلاد العرب والإسلام .

ــ لقد أغار كلب الروم على الثغور وأوغل جنوده فى بلادنا ، وقتلوا النساء والأطفال ، ونكلوا بالرجال ، ونهبوا الأموال ، وانتهكوا الحرمات ، وخربوا المساجد ، واحتلوا الديار وشردوا أهلها .

ثارت نخوة الصحصاح عند سماعه هذا الكلام ، حتى بدت عليه خشونة البداوة ، فصاح ويده على مقبض سيفه :

— : الويل لهم . . وأقسم بمن رفع السماء وبسط الأرض لأوقعن بهم البوار والدمار .

ثم خفض من صوته وهو يقول :

— معذرة يا أمير المؤمنين ، لقد هاجنى فعل أولئك الأنذال ونسيت مايليق بحضرة أمير المؤمنين .

ابتسم عبد الملك متلطفا وقال .

— لا عليك أيها البطل ... ان الأمر يحتاج الى من كان مثلك فى قوة الإيمان والشجاعة وقد وضعت ثقتى فيك .

— إنى سيفك يا أمير المؤمنين ، سيفك الذى تضرب به أعداءك وأعداء العرب والإســـلام .

— وأوصيك يا صحصاح بالمشردين من أهل الديار الذين نهبت أموالهم وأخرجوا من ديارهم وأصبحوا لا مأوى لهم ولا طعام لديهم .

— مثلك يا أمير المؤمنين من يشفق على الرعية وتأخذه الحمية . وسأنفذ ما تأمر به ، ولن أترك مشردا إلا أحللته فى بيته ، ولا مظـــلوما إلا أخذت له من الظالم أضعاف ما أخذ منه .

وفى اليوم التالى صعد الخليفة منبر المسجد الكبير الذى احتشد بالناس ، وقال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه وحث على الجهاد والدفاع عن البلاد :

أيها الناس إنى رأيت أن أقدم عليكم رجلا يسير بكم إلى جيش الروم لقتاله ولا أظنكم إلا راضين به لما عرفتم فيه من سابق الجهاد وصدق الإيمان . فصاحت الجموع فى حماسة : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ولمن يختاره . فنادى عبد الملك :

— يامسلمة .

ــ لبيك لبيك .

ــ اصعد الى .

ثم أمسك بيده وقال :

أيها الناس ، قد قدمت عليكم ولدى هذا فأطيعوه مادام على الحق .

ثم قال :

ــ أين الصحصاح ؟

فبرز الصحصاح قائلا :

ــ لبيك يا أمير المؤمنين .

ــ إلى ياولدى .

ثم أخذ بيده وقال :

ــ وهذا قائد جيوشكم الصحصاح بن جندبة الكلابى .

ثم وضع يده فى يد مسلمة وآخى بينهما ودعا لهما ، وأمن جميع الحاضرين على دعائه .

- ٢٧ -

خرج الصحصاح ومسلمة فى مائة الف مقاتل عقدوا العزم على أن يظفروا بأحد الأمرين ، اما النصر على الأعداء ، أو الاستشهاد فى سبيل الله .

وراحوا يجدون السير وهم فى شوق إلى لقاء الأعداء . ولما جن الظلام نزل الجيش ليقضى الليل فى المكان الذى وصل اليه ،، وبينما هم يربطون الخيل ويعدون المضارب إذ هم يسمعون وقع حوافر خيل تعدو مقتربة ... وما كادوا ينتبهون لها حتى تبينوا أربعة من الفرسان العرب قادمين من الشمال ، وطلبوا مقابلة الأمير ، قال أحدهم الحـــارس :

— لقد جئنا بأخبار الروم ونريد أن نفضى بها للأمير مسلمة .

وقال الثانى للحارس وهو يتفحصهم :

— نحن من دمشق ، أرسلنا أمير المؤمنين لنتعرف أخبـــار الأعداء ، فتخفينا فى أزياء الروم واختلطنا بهم ، حتى عرفنا أحوالهم ووقفنا على أعمالهم وخططهم :

ودخـــل جواسيس العرب على مسلمة والصحصاح ، واخبروهما ان الملك « ارمانوس » الجبار العنيد تولى عرش الروم بعد موت ابيه «ميخاييل» وكان اول ما فكر فيه أن يغزو بلاد العرب ويبسط عليها سلطانه ، ولكن وزيره « لوقا » قال له : اعلم انك طيب العيش مستقر ، وان العرب قوم أشداء لا يقهرون ، فلا تلق بنفسك الى المهالك وتعرض دولتك للزوال . فغضب منه وصاح فيه : بهذا التدبير كنت

تدبر لأبى وتخيفه من العرب حتى قويت شوكتهم واتسعت فتوحاتهم وضعفت دولتنا ، والآن تريد أن تثنى عزمى ، ماذا تظن بى أيها الوزير ؟ أتظن أنى جبان ضعيف ؟ أترك هذا الهذيان واعلم انه لا يقر لى قرار حتى اقضى على دولة العرب وامتلك بلادهم . وجهز « ارمانوس » جيشا كبيرا من مائتى الف فارس وجعل على قيادته فارسين من اقوى رجاله ، هما « اشمونيس » و « مقلاعوس » وساروا فى السفن الى ان وصلوا الى الشاطىء العربى ، ونزلوا فى ديار بكر ،وتغلبوا على اهلها ، فقتلوا ونهبوا واسروا ، وقال اشمونيس لرجاله : انا لا احب أسرى العرب ، لأنهم يؤثرون فى قومنا ويجذبونهم الى الدخول فى دينهم ، فاقتلوهم ولا تبقوا على أحد منهم ، فقتلوا الأسرى ، كما قتلوا الأطفال والنساء .

قال مسلمة وهو يلتفت الى الصحصاح .

ــ ولكننا لن نفعل مثلهم .

ــ ماذا تعنى ياامير ؟

ــ اعنى اننا سنأخذ اسراهم ولا نقتلهم ، بل نعاملهم معاملة طيبة ... وقد فعلنا ذلك فى المعارك السابقة ، فكسبنا منهم من دخل فى ديننا وصار منا ، واصبح عونا لنا على المعتدين من قومه . وبذلك يتحقق مايخشونه .

ــ نعم مافعلت وماتفعل ياابن أمير المؤمنين ...

* * *

رفعت امرأة من « ديار بكر » رأسها الى السماء وقالت : يارب .. قد فقدنا أهلنا وأموالنا وشردنا من ديارنا ، وأصبحنا لا نجد طعاما ولا مأوى ، ولم يبق لنا إلا رحمتك ، يارب ،هل لنا ناصر غيرك أو لنا خلاص إلا بك ؟

ولم تفرغ المرأة من دعائها حتى رأت غبارا يسد الأفق ، واذا الغبار ينكشف عن رايات إسلامية يتبعها جيش لا أول له ولا آخر ... فصاحت صيحة الفرح ، وأيقنت أن الله قد استجاب دعاءها وجعلت تزغرد فى فرح عظيم .

وجاء جاسوس عربى الى مسلمة والصحصاح وأخبرهما أن الروم علموا بقدوم الجيش العربى فاستعدوا ، ونظموا صفوفهم . فجعل أشمونيس نفسه فى القلب ، ومقلاعوس على الميمنة ، وقائداً آخر يقال له « جرفناس » على الميسرة .

فقال الصحصاح لمسلمة :

— أرى ياأمير أن نصف جنودنا وننظم قيادتنا ، فأكون أنا فى القلب ، ومروان بن الهيثم على الميمنة ، وعمى عطاف على الميسرة ، وأنت أيها الأمير تكون فى « الساقة » تحت الرايات والأعلام لأنك حافظ الجميع والحصن المنيع ،

فشكره مسلمة ووافق على مارأى ، ورتبت الصفوف طبقا لذلك .

وشرع الجيش العربى فى التحرك نحو جيش الروم ، وإذا بفارس يظهر من جهة هذا الجيش على بغلة شهباء تسرع به نحو جيش العرب ، وتبينت الطليعة هذا الفارس فاذا هو شيخ مليح الشيبة ظاهر الهيبة ، عليه ثوب أسود من الصوف ، وفوق رأسه قلنسوة سوداء ، وفى يده عصا من الأبنوس ، أقبل وهو ينادى : يارجال العرب ، أنا رسول اليكم ، وأنتم تقولون فى دينكم ما على الرسول إلا البلاغ ، وقد نهى نبيكم عن قتل الرهبان والنساء والأطفال ، وان معى رسالة الى أميركم من عند القائد اشمونيس ، فخذوا لى الأمان من قائدكم حتى أصل اليه وأبلغه هذه الرسالة .

قال مسلمة : أدخلوه فى أمان .

ودخل ، فقال له الصحصاح :

— هذا ابن خليفة المسلمين وولى عهد أمير المؤمنين ، فتقدم إليه وقبل الأرض بين يديه ، وقل له ما جئت من أجله .

فقال الراهب :

— أما الأرض فهى بساط الله تعالى ، وأما السجود فهو عندكم لا يكون إلا لله الواحد المعبود ، فكيف تأمرونى ان أضع جبينى على الأرض لغير الله ؟

اجاب الصحصاح:

— ياشيخ ، انى أقصد أن يكون سجودك لله أمامه ، أما هو فعبد مثلك ، وهو يسجد لله رب العالمين .

قال الراهب :

— أما ما أتيت من أجله فهو أنى أشرت على أشمونيس ومقلاعوس ومن معهما بما فيه صالح الفريقين وحقن دماء الرجال ، فينحصر القتال بين فارسين أو أربعة يتبارزون ، والأمير اشمونيس يقول لكم : إنى سأتقدم لأفدى جنودى بروحى ، فليفعل أميركم مثل فعلى ، فإن قتلنى فما يبقى من بعدى لجيش الروم قتال ، وان أنا قتلته كانت واقعة الانفصال .

قال الصحصاح للراهب :

— ارجع الى أشمونيس وقل له انى خارج اليه غدا ان شاء الله تعالى .

كان أشمونيس فارسا شديدا وجبارا عنيدا ، وقد اختاره الملك « أرمانوس » لحرب العرب ، لما يتصف به من قوة البأس ومعرفة ضروب القتال ، ولم يستطع أحد فى بلاد الروم أن يقف أمامه فى مبارزة أو حرب .

— ٢٨ —

أقبل الصباح ، وأضاء بنوره ولاح ، فخرج الصحصاح الى الحرب والكفاح ، وقد صفت الصفوف ، ودقت الدفوف ، ووقفت المئات والألوف ، ترقب وتنظر على من تدور الدوائر والحتوف .

وبرز أشمونيس من بين صفوف الروم على جواد عالى القوائم ، كأن أرجله دعائم ، وفى يده صارم ذكر ، كأنه القضاء والقدر ، وعليه درع من الحديد مطلية بالذهب الأصفر ، مرصع بالدر والجوهر ، ونادى بصوت كنهيق الحمار ، وهو يجول فى المضمار : انا المقدم على هذه الجيوش ... انا اشمونيس ، خرجت افدى هذه النفوس ، أين فارسكم المعروف ، وأميركم الموصوف ، ليبرز الى من بين الصفوف كى أسقيه كأس الحتوف .

فلما سمع الصحصاح هذا الكلام برز إلى الأمام على جواد عربى أصيل ، وصاح فى أرمانوس :

— أنا الصحصاح يا كلب اللئام ، واليوم تشرب من يدى كأس الحمام .

— والتحم الفارسان ، وأبدى كلاهما من فنون الضرب والطعان ماحير الأذهان وغابا عن الأنظار ، يحجبهما ما يثار من الغبار ، وقد تعلقت الأنفاس من الفريقين ، اذ رأوهما يتبـــادلان ضربتين كانت الأولى من الصحصاح ، فزاغ منها أشمونيس ، إذ مال عن سرجه ، ثم اعتدل ووجه إلى الصحصاح طعنة جاءت فى الهواء خائبة ، إذ دار له الصحاح وسدد اليه الضربة القاتلة ، فسقط أشمونيس قتيلا بين الصفين على مشهد من الفريقين .

— ارتفعت أصوات العرب بالتكبير ، ونظر الروم إلى ماحل بقائدهم ، فهاجوا ولم يراعوا ماتم عليه الاتفاق ، فحملوا على جيش العرب وفي مقدمتهم مقلاعوس ، وحمل عليهم العرب ، ونشب بين الفريقين قتال ، فتك فيه الصمصام بالرجال ، وأفنى كثيرا من الأبطال ، وتراجع الروم عن الميدان بعد ما نزل بهم من الدمار والخسران . وكان النهار قد أدبر ، والليل أقبل ، فرجع كل إلى معسكره يلم شمله ويدبر أمره .

قال مقلاعوس لقومه ، وقد تحلقوا حوله ينتظرون أمره :

— علام عولتم ؟

قالوا :

— على ماتراه ، فأنت المقدم والقائد الأعظم .

قال :

— انى قد عولت على أن أبرز الى هذا الرجل .

وسكت قليلا ثم قال :

— إنه فارس عنيد ... ولكن لن يمسنى منه سوء ... سأتغلب عليه ببركة الحافر ... قال أحد رجاله :

— أى حافر يا مولاى ؟

— حافر حمار أعطاه لى الراهب الكبير وقال لى أنه حافر حمار أحد القديسين ، وأنه مادام معكم فإن البركة لا تفارقكم .

— لو أعطيته لأشمونيس ماتغلب عليه العربى .

— عرضته عليه فسخر منى ... ولو أخذه بقبول ما حل به الهلاك .

وأخرج مقلاعوس حافر الحمار وعلقه برقبته ، وبات الرهبان يقرؤون حوله ويبخرونه .

وكان للعرب جاسوس بينهم سمع هذا الحديث ، وشاهد ماحدث ، ثم عاد إلى مسلمة وقص عليه ما رأى وما سمع . فضحك مسلمة حتى استلقى على قفاه وقال له ان كان يستعين بالحمار فأنا أستعين عليه بالملك الجبار ، وانى فى غداة غد قد أخرج اليه وآخذ روحه من بين جنبيه وأنظر ماذا يصنع له حافر الحمار .

ودخل الصحصاح على مسلمة ، فسمع آخر الكلام ، فقال له :

— يا أخى ماهذه الأخبار ؟

— ان الملعون مقلاعوس يستعين علينا بحافر الحمار .

وأخبره بما سمع من الجاسوس وهو غارق فى الضحك ، ثم قال :

— وانى عازم أن أبرز اليه فى الغد .

فقال الصحصاح :

— لا وحق العرب وشهر رجب والله الذى إذا طلب غلب ، ما يخرج اليه إلا عبدك الصحصاح . فشكره مسلمة وقال له :

— يا أخى ، كفاك ما قاسيت فى هذا اليوم .

— لا ، إننا نفديك بأرواحنا ، ومن هذا المقلاعوس حتى تبرز اليه ونحن فى صحبتك وبين يديك ... ؟

— إذن لاتخرج اليه أنت ولا أنا ، وهاهم أولاء فرســـان العرب الأشداء ، ليخرج اليه أحدهم وليس من الصواب أن تقدمك فى كل قتال ، وما فى بلاد الروم من يساوى قلامة ظفرك .

قال الجاسوس :

— يامولاى ، إن الروم نزل فى قلوبهم الرعب من أمير العرب وهو يقاتل أشمونيس الجبار ويصرعه ، وكانوا عولوا على الفـــرار ، وما ثبتهم إلا حافر الحمار .

فقال الصحصاح ساخرا :

ـ غدا أنزل عليه بركة الحمار .

قال مسلمة ضاحكا :

ـ يا أخي ، أما تخاف من الحافر ؟

ـ اتخاف أن يرفصني ؟

قال مسلمة وهو يتابع الضحك :

ـ هلا استعان بحافر بغل أو حصان ... ؟

ثم قال :

ـ يا أخي مادمت تصر على الخروج اليه ، فليكن ماتشاء وعناية الله تحرسك .

* * *

دقت الدفوف ، واصطفت الصفوف ، وخرج الصحصاح إلى الميدان على ظهر جواده ، وهو من أولاد فرسه « مزنة » التي ماتت والتي كان يعتز ويتفاءل بها وصاح بين الصفين ولعب بالرمح حتى حير الفريقين . ثم نادى : أين مقلاعوس الكلب المنحوس لأذبحه ذبح التيوس ؟

وتطاولت الأعناق تنظر ، وإذا مقلاعوس يتقدم على جواد أصفر كأنه عاشق طال به السهر ... واتجه إلى الصحصاح وحمل عليه ، وأخذ الفارسان في الضرب والطعان ، ورأى الصحصاح منه شدة البأس وقوة المراس ، فاستجمع قوته وأطبق عليه وضربه بكلتا يديه ضربة سيف أطاحت رأسه من بين كتفيه .

فهاج جنود الروم ، واشتد بهم الغيظ وحملوا على الصحصاح ، فتلقاهم بالسيف وصاح ، وأجرى دماءهم على البطاح ، وحمل الأمير مسلمة وفرسان العرب على جيش الروم ، وعملت صوارمهم في الأعناق ، وظلت السيوف تقطع ، والأبدان تصرع والنفوس تجزع ، والعيون تدمع ، إلى أن ولى النهار ، وركن الروم إلى الأدبار

والفرار ، بعد أن قتل منهم من قتل ، وأسر من أسر ، وتبعهم العرب حتى شاطىء البحر ، وقد اندفعوا اليه ، فغرق منهم من غرق ، ونجا فى السفن من استطاع النجاة

وقد غنم العرب فى هذه الواقعة غنائم كثيرة من أموال لاتحصى وخيول سيوف ورماح وأمتعة ، ووزع كثير من ذلك على أهل البلاد الذين اعتدى عليهم ونهبت أموالهم ، فاطمأنوا فى ديارهم ، ولم يبق فيهم محتاج ولا مشرد .

واستولى الجيش العربى كذلك على كثير من سفن الروم التى أتوا عليها ، ثم أمر مسلمة والصحصاح بإعداد العدة لعبور البحر وراء الفارين إلى بلادهم وفتح القيسارية مقر ملكهم « أرمانوس » حتى لا يعودوا إلى بلاد العرب مرة أخرى ، وكان فى أسرى الروم من مال إلى المسلمين وأحبوهم لما لقوا فيهم من السماحة والروح الطيبة والمعاملة الكريمة ، ومنهم من أسلم واندمج فى جيش المسلمين كواحد منهم . وكان هؤلاء عونا كبيراً للعرب فى بناء سفن أخرى إلى جانب السفن الرومية ، حتى تكون أسطول كبير عبر به الجيش العربى إلى شاطىء الروم .

* * *

قال الوزير « لوقا » للملك « أرمانوس » :

— لقد نصحت لك يا مولاى فلم تسمع نصيحتى ، قلت لك أن العرب قوم أشداء لا قبل لنا بهم ، وأن غزو بلادهم سيجر علينا المتاعب والقلاقل والخراب . والآن وقد حلت بنا هذه المحنة ، ولم يكتف العرب بهزيمتنا فى بلادهم فجاءوا إلى بلادنا واقتحموا ديارنا — لم يبق لنا غير التدبير فى دفعهم عن هذه البلاد .

— وما الرأى عندك أيها الوزير ؟

— الرأى أن نكتب أيها الملك الرحيم إلى سائر الأقاليم ، حتى تأتى إلينا

الجيوش من كل مكان ، فيحاربوا هذا العدو المغير ، الذى يهدد ملكك بالشر المستطير .

وكتبت الرسائل إلى أمراء الأقاليم ، وأقام أرمانوس ينتظر قدوم جيوشهم ، حتى يجمع منهم جيشا كبيرا يقاوم به ، على حين نزل العرب فى مرج بعيد عن القيسارية ، وجدوا فيه حقولا يانعة ورياضا زاهرة وقلاعا شامخة ، استولوا عليها دون أية مقاومة .

- ٢٩ -

قال مسلمة للصحصاح :

ــ جاءنى بعض رجالنا الذين أرسلناهم ليجولوا فى الديار القريبة متخفين ليعرفوا أحوالها ويأتونا بأخبارها ، فأنبأوا بأن أهل هذه البلاد عندهم الليلة عيد مقدس ، وهو عندهم يوم سرور وشرب خمور ، يغنى فيه الرجال والنساء ويرقصون ، وأرى من الصواب أن ندع جنودنا وفرساننا يذهبون إلى مجتمعاتهم ويتفرجون ويرفهون عن أنفسهم .

فقال الصحصاح :

ــ حسن ما ترى يا أمير ، وإن جعلناهم يذهبون جماعات صغيرة يكون ذلك أحسن ، لأن الفرد قد يحدث له ما لا يستطيع دفعه وحده ، والجماعة الكبيرة تسترعى الأنظار وتثير الأخطار .

ــ صدقت يا أمير العرب ، فأصدر أمرك بذلك ، وأوص الرجال ألا يعتدوا على أحد ولا يأخذوا شيئاً بغير ثمنه ، فنحن ما جئنا هنا للإفساد ، ولا نريد أن نفعل مثل ما فعلوا فى ديارنا .

ــ سمعا وطاعة يا ابن أمير المؤمنين .

بعد أن أصدر الصحصاح أوامره بذلك ، وتفرق الرجال هنا وهناك ، ما عدا الذين عينهم للحراسه والمراقبة ــ طاب له أن يتنزه فى بعض الجهات ، فركب

جواده وسار متوقعا أن يلحق ببعض الرجال ، ولكنه لم يصادف أحدا فى الطريق ، وقد مضى شطر من الليل وهـو على ظهر جواده ، سارحا مع شتى الأفكار والمشاعر . وتصور ما كان يحدث لو أنهم فعلوا فى هذه البلاد مثل ما فعل جيش الروم فى « ديار بكر » وغيرها من التخريب وقتل الأبرياء والمسالمين ونهب أموالهم وتشريدهم من ديارهم . إذا كان كل جيش يغزو مخربا مدمرا فيا ويل الناس جميعا . وتذكر ما كان يحدث بين القبائل فى البادية من السطو والنهب ، وكان من الممكن أن ينساق هو فى ذلك ، فيعتدى على القبائل ويسلب أموال النـاس ويقتلهم ، ليدفع مهر ليلى حبيبته وإبنة عمـه عطاف ، لولا أن هدته فطرته إلى التعفف عن ذلك ، وقادته المروءة والنخوة إلى نجدة المظلومين والمعتدى عليهم مثل صديقه « غانم » ومثل « مروة » بنت الخليفة .

ثم سأل الصحصاح نفسه : أليس الذى تفعله هـذه الجيوش الغازية المعتدية المخربة مثل ما كانت تفعله بعض القبائل مع فارق يسير ، هو أن هذه تزاول إعتداءها فى محيط ضيق ، وتلك ترتكب شناعاتها فى المحيط الواسع بين الامم والدول .

وتأمل الصحصاح موقفه الآن فى بلاد الروم ، هو ومن معـه من الرجال والفرسان ، وشعر بالارتياح والسرور لما نفذه الليلة من تنبيه الجنود وتحذيرهم من أن يأتوا أى عمل يؤذى الناس المسالمين فى أنفسهم وأموالهم وشعر بالحب والتقدير لمسلمة بن عبد الملك ، إذ وجهه إلى ذلك والتقى معـه فى نفس المشاعر والأفكار .

وأحس بنشوة غامرة ، وهو يستشعر فى نفسه أنه أتى الى هذه البلاد مع جيش المسلمين لينشر الحق ويمحق الشر ، وكان الجو ساحرا والجواد يمشى به الهوينى على شاطىء نهر صغير ، فألهته تلك النشوة عن أن يفكر أين هو والى أى هدف يسير فى هذا الطريق ، وطابت له غفوة على ظهر الجواد ، وغرق فى نومه كعادته فى البادية عندما كان يسرى فى الليل ...

وظل الجواد يسير به على غير هدى ، ثم إنتبه الفارس النائم على وقوف حصانه فجأة ، فقد استغرق فى النوم على وقـع حوافره واهتزازه فى مشيته ... وعندما

استيقظ حاول أن يعرف أين هو .. وبعد جهد تبين المكان الذى وصل اليه ، فإذا أشجار وبساتين تلوح تحت مزيج من نور القمر وخيط الفجر الأبيض ، وترجل عن جواده وربطه بإحدى الأشجار وسار قليلا . واذا هو يرى عشر جوار حسان عليهن الحلى والحلل ، وفى خصورهن أحزمة من الحرير الأحمر ، وعلى صدورهن صلبان مرصعة بالجواهر ، وفى وسطهن فتاة مليحة القوام ، حلوة الابتسام ، موردة الخدين ، سوداء الشعر كأنها البدر .

وقف بحيث لايرينه يرقبهن . سمع الفتاة تقول لجواريها :

— هيا نبدأ اللعب ..

قالت إحدى الجوارى :

— هيا يامولاتى ، فقد بدأ نور الصباح :

وتقدمت هذه الجارية ، فأخذت الفتاة فى مصارعتها . . تحاول كل منهما أن تطرح الثانية على الأرض .. فما هى إلا لحظة حتى صرعت الفتاة الجارية ، وحلت حزامها وقيدتها بها ، ثم تقدمت الجارية الثانية ، ففعلت بها مثل ماصنعت بالأولى وكذلك باقى الجوارى العشر .. ووقفت تضحك وتصلح شعرها الذى تهدل على وجهها وعنقها فى تيه ودلال .

قال الصحصاح فى نفسه : لكل رزق سبب .. وما أخذنى النوم ووصل بى الجواد إلى هنا إلا لهذا الرزق الذى أتانى بلا تعب . وعاد إلى حصانه فركبه وتأخر به قليلا ثم عاد يمرق اليهن ووقف عندهن وقد شهر سيفه ... وما رأته الفتاة حتى وضعت قدميها على حافة النهر الصغير ووثبت حتى صارت على الجانب الآخر ، وصاحت بصوت عذب قوى :

— من أنت أيها الفارس ، وما الذى جاء بك إلى هنا لتفسد علينا لعبنا ومرحنا وتقطع سرورنا ؟

ثم خفضت من صوتها فى تهكم : —

— وقد أشهرت سيفك كأنك تحمل على فرسان الملك أرمانوس ..

ثم رفعت الصوت فى تهديد :

ــ قل لى ماذا تريد .. ان أردت الطريق أرشدناك ، وان كانت قد حدثتك نفسك بالطمع فينا فهذا عين الهلاك :

قال الصحصاح :

ــ اذا لم تعودى الى أيتها الحسناء أخذت هؤلاء الجوارى غنيمة ، ورجعت بهن الى أصحابى .

فقالت الفتاة ساخرة :

ــ غنيمة ؟ وماذا بذلت حتى تحصل على هذه الغنيمة ؟

ــ وسكت الصحصاح حائرا لا يدرى ماذا يقول ، فتابعت الفتاة كلامها فى مزيج من الرقة والتهديد :

ــ ياهذا إننى أشفق على الغرباء ، ولولا أنى أخاف عليك من الهلاك لصحت صيحة تملأ هذا المكان خيلا ورجالا ، فهل لك أن تنزل عن جـــوادك وتغمد حسامك ، ثم تصارعنى ... فإن غلبتنى أخذتنى مع هؤلاء الجوارى غنيمة كما تقول ... وان أنا غلبتك تحكمت فيك وتصرفت بك كما أريد .؟

ــ لك هذا ياذات الحسن والجمال .

ــ انى أخاف من غدرك وأخشى الا تصدق فى قولك ، فاقسم لى بما تدين به الا تدنو منى بسلاح ولا تضربى بحديد .

ــ حلفينى بما تريدين .

ــ احلف لى بمن ركب الأرواح فى الأجسام ، وشرع الشرائع للأنام ، من يهود ونصارى وأهل الاسلام .

قال الصحصاح فى نفسه : والله ان حلفنى قاضى قضاة المسلمين لما حلفنى بمثل هذه اليمين .

وأقسم لها ما أرادت من الأقسام ، ونزل عن جواده وربطه ببعض الأشجار ، ووقف قبالتها يأخذ أهبته للمصارعة وقال لها :

ــ اعبرى إلى .

فضحكت وتمايلت عجبا وقالت له .

ــ اعبر أنت إلى عندى .

ــ لا قدرة لى على ذلك أيتها الحسناء .

ــ كيف تكون من الفرسان ولا تقدر على ما تقدر عليه الحسان ؟

ــ إذا كنت لا تأتين إلى ولا أنا أستطيع أن أقفز اليك فكيف يكون العمل ؟

ــ هل أنت على ما حلفت مقيم ؟

ــ نعم وحق السميع العليم .

فوثبت حتى صارت أمامه .

وعلى شعاع الصباح المبكر تأملها وهى دانية منه ، فخيل اليه أنها الصبح الذى أشرق ... تفوق بنات العرب فى اعتدال قوامها ، قد صبتها يد القدرة فى قالب جمال ليس له مثال ، وتجمع إلى ذلك ملاحة العربيات وسمتهن من سحر العيون وسائر صفات الكمال والظرف والذكاء .

أحس الصحصاح لأول وهلة أمام هذا الحسن المكتمل أنه لا يقاوم ، فلا يمكن المرء حياله الا التسليم وخيل اليه أن عصابة الجوهر فوق جبينها درع فارس ، وأن الذوابات التى تتدلى على عنقها وكتفيها زرد يتدلى ذلك الدرع .

وقف أمامها مشدوها ، ولكنها نبهته بقولها :

ــ هيا يامسلم ... إلى الصراع .

فاندفع اليها بقوة إرادة ، وتماسكا وتصارعا .

وما هى إلا جولة قصيرة حتى كان يهتز فى يدها ... ثم رفعته وألقته إلى الأرض وقالت له :

ـــ يا مسلم . انتم تستحلون قتل النصارى ... فماذا تقول فى قتلك وأنت على هذه الحال ؟

ـــ ياسيدتى ، ان القتل حرام فى جميع الأديان ، ونحن لا نقتل المسالمين ، ونبينا قد نهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ .

ـــ إذا كان نبيكم قد أوصى بذلك فقم ، فقد وهبتك نفسك .

أحس الصحصاح بأنه فى دوامة من أحاسيس لا عهد له بها ... لأول مرة تصرعه أمرأة ... ياللعار !

ولكن هذا المخلوق اللطيف الرائع ... هل يقاوم ؟ هل يمس بسوء ؟ هل يعده المرء ندا فى حلبة المصارعة ؟ هل انبهار الرجل بالحسن يعد ضعفا ؟ إنه مهما كان الأمر يشعر بالخجل ، ولابد من المعاودة ... وازداد خجله واصراره على استئناف المصارعة وهى تقول له فى سخرية ممزوجة برقة ودلال :

ـــ يا هذا لاتخجل ... ولكن ألاترى أن من يدخل بلاد الروم يحارب أهلها وهو لايستطيع أن يدافع عن نفسه أمام ذات ســـوار ، كما تقولون فى لغتكم ـــ وكانت تكلمه بالعربية ـــ فالأولى به أن يعود إلى بلاده ويلزم حـــده .

فقال لها وهو يستجمع شجاعته وقوته :

ياسيدتى ، إننا لم نأت إلى هنا لنحارب أهل هذه البلاد ، انما جئنا لمحاربة من اعتدوا على بلادنا ، واعلمى أننى لست عاجزا عنك ، وما غلبتنى إلا بحسنك وجمالك هلا تفضلت بدور آخر ؟

ـــ لك ما تريد ، ولكن هؤلاء الجوارى طال عليهن الأمد وهن مربوطات وتعبن من الوثاق ، فسأفك قيودهن وأرجع لك ، فربما طال الصراع معـــك .

وفكتهن وصرفتهن ، وعادت إلى الصحصاح تهيب به إلى المصارعة ، واشتبك الاثنان فى صراع عنيف ، كانت هى تبدى فيه ما حذقته من ضروب المهارة فى هذه

الرياضة . وكان هو يستجمع قوته الطبيعية ، وكلما رأت شدة بأسه لجأت إلى التأثير فيه بمفاتنها ، حتى أنست منه الضعف والاسترخاء ، فتخلصت منه وهجمت عليه ورفعته بيديها وألقته إلى الأرض ... ووقفت إزاءه تقول له :

— قد وهبتك نفسك مرة ثانية لأجل غربتك ، وضعف قوتك ، وإن كان فى معسكر العرب من هو أقوى منك فأرسله إلى ودله على . ولو كان ملككم المشهور المسمى بالصحصاح .

قالت ذلك ووثبت . فكانت على الضفة الأخرى للنهر الصغير ، ورفعت صوتها تقـــول :

— يعز علينا فراقك ... اذهب قبل أن ينتشر ضوء الصباح ويخرج اليك الفرسان بالسلاح .

تحير فى أمره ، وصغرت نفسه عنده ، وعز عليه أن ينتهى الأمر هكذا ، ولما رآها تهم بالسير معرضة عنه ناداها :

— ياسيدتى ، كيف تمضين وتتركين غريبا حل فى أرضك ؟

— انك لم تقدم حق الصحبة والمودة .

— انى أعتبر نفسى ضيفا عندك .

— لا يأبى الضيافة إلا لئيم ، مرحبا بك وعلى الرحب والسعة ، اركب جوادك وسر على ضفة النهر ، فأنت فى ضيافتى ولو أقمت شهرا كاملا .

فرح الصحصاح ، وبادر إلى جواده فركب وسار فى محاذاتها ، حتى وصلا إلى جسر أشارت اليه بعبوره ، فعبره ، ونظر هناك الجوارى اللائى كن معها ، وكلمت الجوارى باللغة الرومية، فأخذن جواده وصحبته إلى قصر عظيم ، راعه ما رأى فيه من أبهاء واسعة وأثاث فاخر وجدران مطلية بألوان باهرة ومحلاة برسوم ونقوش ذهبية ، وقناديل من البلور الناصع ، وأشياء أخرى أذهلته وحيرته .

وأدخلته الجارية إلى غرفة بها أثاث مغطى بفرش من الحرير ، وأشارت له بالجلوس ، فجلس ، وسأل الجارية :

ــ ما اسم سيدتك ؟

ــ الأميرة ألوف .

وغابت عنه الجارية ، ثم رجعت اليه تقول :

ــ انى فى خدمتك ياسيدى ، وكل ماتطلب مجاب .

ــ اين الأميرة ألوف ؟

ــ عما قليل تجىء .

وجعل يفكر فى شأن هذه الفتاة وشأنه معها ، ولام نفسه على تورطه ، حتى سلم اليها نفسه فى هذا القصر الذى يشبه القلعة ، ومن يدرى ماحقيقة نياتها ، وكيف يغيب عن الجيش ، ولا بد أنهم قد قلقوا عليه وصاروا يبحثون عنه ، واشتد به التفكير حتى قال لنفسه بصوت مسموع : ماعذرى يوم القيامة وقد ألقيت نفسى فى التهلكة ، وعرضت جيش المسلمين الأخطار ، وكل ماصنعته يذهب الآن سدى .. إنا لله وانا اليه راجعون... ماذا أقول لربى إذا سألنى يوم يسأل كل راع عن رعيته وقال لى يا صحصاح ما الذى حملك على ترك مصالح المسلمين فى بلد غريب ؟ ما الذى صنعت فيما استخلفك فيه الخليفة ؟ أتبيع الدار الآخرة بالدنيا الساحرة ؟ يا من صرفت كيد النساء عن يوسف ، اصرف عنى كيدهن .

كان يقول ذلك رافع الرأس متضرعا الى الله ، وما كاد يخفض رأسه حتى شاهد « ألوف » تدخل عليه باسمة وهى تقول :

ــ أنعم الله صباح الملك الصحصاح .

ــ ياسيدتى ، أين الصحصاح ؟

ــ ان الكذب عند العرب منقصة وعار ، لا سيما عند الملوك الكبار . وأنت أمير

جيش المسلمين وذخيرة أمير المؤمنين ، فلا تكتم حالك ، ولا تخف شأنك وقد نفذ فيك سهم القضاء ، فعليك بالتسليم والرضا .

ـ نعم ، أنا الصحصاح ... افعلى ماشئت ... إن بقيت على الودفأنا كذلك ، وان نقضت الأمان فلست والله بخائف ، وما أتيت معك الى هذا المكان إلا وانا واثق من نفسى وقدرتى على ملاقاة أشجع الشجعان .

ووضع يده على سيفه . فابتسمت له :

ـ انى احتمل منك أكثر من هذا ، فأنت ضيفى ، وأنت فى امان ، وحق السيد المسيح لئن طلبك رجال أرمانوس ماوصلوا اليك الا بعد أن تذهب روحى بين يديك .

- ٣٠ -

أمرت « ألوف » بإحضار الطعام ، وأعدت المائدة ، ونظر الصحصاح فرأى عليها غرائب الألوان من لحوم الدجاج وغيرها ، فمد يده الى الدجاج وأعرض عن بقية اللحوم فقالت له :

— ياصحصاح ، وحق فالق الاصباح ، وخالق الأرواح ، إنى لا أستحل أن أدعوا مسلما إلى ضيافتى وأطعمه لحم الخنزير أو أقدم له الطعام فى آنية طبخ فيها .

فأكل ماطاب له ثم أدنت منه طبقا من الذهب وقالت له : هذا لبن حليب وعسل نحل قد مزجا بماء الورد وسكر النبات .

ولما فرغا من الأكل جلسا يتحدثان ، قال الصحصاح :

— مارأيت فى النساء مثلك ، وما بقى يعوزك شيء سوى الاسلام .

فضحكت وقالت :

— وكذلك أنا أقول لك : لو تنصرت أنت لم يكن فى النصرانية مثلك .

ثم سألها .

— هل تزوجت يا أميرة ؟

— لى عن الزواج شاغل ، فقد قرأت الكتب واطلعت على كلام العرب وأشعارهم ، وعرفت اخبارهم ، وقرأت تاريخ الروم وملوكهم ، ولى فى الفروسية أكثر مما رأيت فى الصراع .

ـــ وكيف تعلمت لغة العرب ؟

ـــ لذلك ـــ يا أمير العرب ـــ حكاية طويلة .

ـــ هلا حدثتنى بها ، فإنى مشوق الى معرفة الأصل فى ذلك .

ـــ الأصل فى ذلك انه كان قد وصلت الينا سفينة من بلادالعرب وعليها مائة اسير ، فيهم رجل يسمى « عبد الله بن حماد المغربى » وكان بطلا عنيدا ، فألقى فى سجن قلعة قريبة منا على نية هلاكه ، وكنت اسمعه يتلو القرآن ، فلا أعرف مايقول ، فاشتهيت ان اتعلم العربية ، فاحتلت على إخراجه ، وأكرمته ، وتعلمت منه العربية والنحو والاشعار ، ولازمته ثلاث سنين لم يكن يمضى منها يوم إلا ازددت فيه علما بأخبار العرب واشعارهم وحكايات ابطالهم ؟ ومعرفة بطباعهم وصفاتهم وأحوالهم ، حتى صرت كما ترانى ، وكنت احترم ذلك المسلم لأخلاقه وعلمه وأدبه ، وأكرمه غاية الإكرام ، حتى خاف أبى على من دين الإسلام ، واراد قتله ، فمنعته من ذلك واطلقته ودبرت رحيله الى بـــلاده ، خوفا عليه ، وحملته مايكفيه من المـــال .

ثم تركت ألوف الصحصاح ليأخذ قسطا من النوم ، فقد ظل الليل ساهرا ماعدا الغفوة التى أخذها على ظهر الحصان ، وبعد ان استيقظ قضى بقية يومه فى التجول بحدائق القصر والتمتع بمناظرها الخلابة وقطف ثمارها ، وقد رأى الوانا من الفواكه ما عرفها من قبل ، فتناول منها ما طاب له ، وبصحبته ألوف ، وشعر كانه فى الجنـــة التى وعد بها المتقون ... ولكن كان يشغل فكره سؤال يطرأ له : هل أحبها ؟؟ وسرعان مايستبعد هذا الخاطر ، فهو مشغول القلب بليلى زوجته وابنة عمه ، وكثيرا ما فكر فيها ، واستحضر ذكريات غرامه بها ، وحن الى ايامه معها وشعر بالشوق اليها . وازداد الحنين والشوق والحب حينما اتت اليه الأخبار بأنها وضعت ولدا ، لو كان قريبا منه فضمه وقبله .

إذن ماذا يريد من هذه الفتاه الرومية الساحرة الآسرة ... ؟ إنه يسير معها كالمسحور الذى غاب عقله ونامت لرادته ... ثم خطر له خاطر رأى فيه مبررا لتماديه معها ، وفى الوقت نفسه مخلصا من مغامرة عاطفية يوشك ان يقع فيها ... مسلمة بن عبد الملك صديقه الذى آخاه وأنزله من نفسه منزلة نفسه ... أليس جديرا بها ؟ أنها هدية عظيمة سيسر ويسعد بها من غير شك .

وفى المساء أمرت ألوف بإعداد مجلس أنس وشراب ... وملأت كأسين قدمت إحداهما الى الصحصاح وقالت له :

ـــ اشرب ياأمير العرب حتى أغنى لك .

فقال لها :

ـــ لا ياسيدتى ، أنا رجل مسلم ومجاهد فى سبيل الله ، وهذا حرام عندنا .

ـــ لا بأس يا أمير، عندى ما هو أطيب ، شراب التفاح ، وهو عندكم مباح .

ـــ أما هذا فلا مانع منه .

وأمرت بإحضار شراب التفاح للصحصاح ، وقالت له وهى تشرب كأسها : ياصحصاح ، هذا الشراب لنا مباح ، وليس علينا فيه جناح .

وأمرت كذلك بإحضار عود ، وقالت :

ـــ ما أظنك تمتنع عن السماع كما امتنعت عن الشراب فلا يكره الغناء إلا عديم الحس سقيم النفس .

وأصلحت الأوتار ، وعزفت ، وغنت ... ودب السرور فى اعطاف الصحصاح حتى تمايل من الطرب. ولما رأت ذلك منه جعلت تتفنن فى ضروب الألحان والغناء . غنت أولا اشعارا رومية لم يفهم منها شيئا ، ولكن الصوت واللحن والموسيقى أنعشت نفسه وهزت كيانه ، ثم غنت شعراً عربيا فاشتد طربه لها حتى صـــاح معجبا قائلا : سبحان من خلقك فى أحسن تكوين ...

قضى الصحصاح فى هذه الضيافة وكأنه فى حلم لا يريد أن يصحو منه ... نسى أفكاره وهمومه وقلقه على جيش المسلمين ، كان الوقت يمر دون ان يشعر به ، كان

مأخوذا بكل شيء ، من سمر وسماع ورؤية مشاهد جميلة . ولم تكن متعته الفكرية بحديث ألوف وما فيه من علم ومعرفة وفصاحة بأقل من متعته الوجدانية والحسية بما ينظر ويسمع وبما يتناول من شهى الطعام والفواكه والحلوى .

قال لها :

— يابديعة الجمال وفاتنة الرجال ، الآن قد صار لى عليك حقان ، الأول حق الصحبة والثانى سعي الى منزلك والمشاركة فى الطعام . فلو أنك تنعمين على بالمسير الى معسكر العرب حيث تنزلين فى ضيافتى ، وأقابل احسانك بمثله ، وان كنت لا أقدر على مايماثله ...

فقاطعته قائلة :

— وحق المسيح لقد كنت عندى ذا عقل برىء المقصد .. والآن يبدو لى غير ذلك .. كيف تقول هذا الكلام وأنا أعلم أن مثلى إذا وقعت عندكم وصارت لدى خليفتكم لم يكف نفسه عنها ، وأننا نحل لكم فى شرعكم .. فكيف أطمئن اليكم ؟

— لاياسيدة الملاح ، ان ابن خليفتنا مسلمة بن عبد الملك رجل مهذب قويم الخلق ، وان شرعنـــا ليس كما تتصورين ، فليس فيه اغتصاب ، ولا يبيح الاعتداء على الحرمات . انما أردت أن تشاهدى كتائب المسلمين وتتعرفى على ابن أمير المؤمنين ، ونكافئك على معروفك .

— لقد رأيتكم وأنتم تنزلون على شاطىء الخليج ، فلم أر لكم ترتيب الملوك وأبهة الأمراء والقواد وإنما أنتم عرب من البادية ، لاترتيب لكم ولارونق .. أما من حيث مكافأتى فاعلم أنى لا أفعل الجميل لأجل جلالة قدر الإنسان انما أصنع الجميل لكل قاص ودان مهما كان ، أصنع الجميل لأنه جميل ، ولا أنتظر جزاء الاحسان ..

— لقد بان لى - ياذات الحسن - صدق قولك من حسن فعلك . أما قولك بأن العرب ليس فيهم رونق الملوك فاعلمى أننا لانهتم بالمظاهر وألوان الترف

إنما نهتم بجوهر الإنسان ، ونعنى بالفضائل والصفات الكريمة ، ونحن نوزع الخيرات ، فلا يختص بها كبير دون صغير ، ولانجمع الأموال إلا لنسد بها حاجات الناس وننفقها على مصالحهم ، على عكس مارأينا عليه ملوككم وأمراءكم ، اذ يجمعون الذهب والفضة ويعيشون فى الترف والنعمة ولا يعنون إلا بأبهتهم ومظاهرهم ، ويمنعون سائر الناس مما يتمتعون هم به ، يجلبون لهم الفقر باستئثارهم واستغلالهم ، ثم يحتقرونهم لفقرهم ، ويعاملونهم بصلف وكبرياء . وقد أردت أن تشاهدى بنفسك كيف نعيش فى معسكراتنا حيث يتساوى الجميع وتجمع الموائد والمجالس بين الصغير والكبير ، لاطاعة لأحد على أحد إلا بما تقتضيه مصلحة الجميع ، وما يفرضه تنظيم الجهاد ، وحيث ترين كيف نعامل الأسرى من قومكم ، وكثير منهم دخلوا فى ديننا وصاروا من المجاهدين المخلصين .

وبينما الصحصاح وألوف فى ذلك الكلام ، اذ هما يسمعان ضجة عالية وجلبة نامية ثم ينظران رجالا هاجمة صائحة ، وبأيديهم سيوف بارقة ، وهم يقولون بالرومية : وقعت يا كلب العرب وان ينجيك الهرب .

ولما رأى الصحصاح ذلك أيقن بالهلاك ، وذهب ما كان فيه من السرور ، اذ أحاطت به الشرور وقال فى نفسه : لقد احتالت على هذه الفتاة .. شغلتنى بالغناء والأشعار ، وحسن الأحاديث والأسمار حتى وصل الى هؤلاء اللئام .

والتفت إلى ألوف يريد أن يوبخها على غدرها ، ولكنه رأى وجهها قد تغير ، وبدت عليه علامات الغضب ، وصاحت فى وجه المهاجمين :

— ياويلكم ... من أنتم ؟ ومن أين أقبلتم ؟ وكيف دخلتم ؟

فقال لها قائدهم :

— أيتها الأميرة الكريمة ، ألا تعرفين من هذا ؟ انه مخرب البلدان ومذل الشجعان ، ومبيد الفرسان ، هذا قاتل أشمونيس ومقلاعوس ، الذى لاقت منه الروم المذلة والبؤس . وقد وصل نبأ وجوده عندك إلى الملك أرمانوس ، ففرح

بذلك ، اذ أيقن أنه وقع فى الفخ ، وأمرنا بأسره . واعلى أيتها الأميرة النبيلة أن أخذ هذا الرجل يربحنا من جيش العرب ، لأن الملك ان يسلمه اليهم إلا إذا رحلوا عن هذه الديار .

فقالت له ألوف :

ــ ومن أنت أيها الفارس ؟

ــ أنا عبدك جرفناس بن بولص .

ــ ولماذا دخلت من غير إذنى ؟

ــ وصلت إلى الباب فما منعنى أحد ، وما جرت العادة بأن يقف رسول الملك على الباب حتى يؤذن له ، والوقت لايسمح بالإطالة ، فالملك منتظر وصول هذا المسلم اليه .

ــ اسمع منى ياهذا ، ان هذا الرجل مادخل قصرنا وألقى بنفسه بيننا إلا وهو واثق من نفسه ، وقد سألته عن اسمه فقال انه الصحصاح وانه أتى للاستيلاء على هذه الناحية ، ولما كان رجال أبى متفرقين فى القرى المجاورة ، فانى جعلت أسايره خوفا على نفسى منه ، وان رمت أخذه فها هو أمامك ولكنكم مائة رجل وهو رجل واحد ، فانصفوه بأن يبرز له واحد منكم ومن استطاع أن يأخذه كانت له الحظوة عند الملك والشرف بين الناس .

فقال جرفناس

ــ لقد أشرت بالصواب والأمر الذى لا يعاب ، وحق المسيح ان يبرز له غـــيرى .

ــ اصبر حتى أترجم له ماجرى بيننا من المخاطبة .

واقبلت على الصحصاح وأخبرته بما دار بينها وبين جرفناس ، وقالت له انها تعلم ان جرفناس او غيره لن يثبت له . فابتسم وقال لها :

ــ مالنا ولهذه المطاولة ... أنا ماأبرز لواحد حتى يطول علينا الأمر ، انما أريد أن احمل عليهم جملة واحدة حتى انتهى منهم فى أقصر وقت .

ــ لا وحق المسيح ، ما أتركك تخاطر بنفسك .

خرج الصحصاح وجرفناس الى ساحة الميدان ، وحمل كل منهما على الآخر ، وتبادلا الضربات بالسيف ، وماهى الا جولة حتى كان جرفناس صريعا على الأرض مشقوق الرأس .

فلما رأت ألوف ذلك عظم الصحصاح فى عينيها ، وعلمت أنها ما تغلبت عليه فى المصارعة الا بجمالها ، ثم التفتت الى الجنود وقالت لهم :

ــ هل منكم من يريد أن يبرز له ؟

فتقدم أحدهم ،وحمل على الصحصاح ،ووجه الضربة الى رجليه ،فقفز الصحصاح ثم أهوى عليه بضربة قضت عليه .

فهجم عليه الباقون ، فأعمل فيهم السيف ، ولما رأت ألوف ذلك منهم صاحت فيهم ، فلم يرجعوا فنادت جواريها ، وأمرتهن بلبس الزرد واحضار السيوف ؟ وراحت معهن تستعد للدفاع عن ضيفها وهى تقول :

ــ وحق المسيح لا أبخل بروحى على ضيفى ولو عاديت أهلى وقومى :

ولكنها ماعادت هى والجوارى لابسات الدروع وبأيديهن السيوف حتى رأت معظم الرجال مجندلين والباقين منهزمين متراجعين .

ونظر الصحصاح الى ألوف والجوارى فى تلك الحال ، فقال لها :

ــ ما هذا يا مولاتى ؟ هل يحتاج الأمر الى كل ذلك ؟

ــ خفنا عليك ، وقد سرنا الله بسلامتك .

بات الصحصاح عند ألوف الليلة الثالثة ، فلما كان الصباح استأذنها فى الرحيل ، وأرادت أن تستبقيه ، فقال لها :

— إننى أولا قلق على جيش المسلمين ، وقد غبت عنه ثلاثة أيام ، ولا أحد من أصحابى يعلم أين أنا ، ولا بد أنهم يبحثون عنى فى قلق وانزعاج ، وثانيا أخشى أن يرسل أرمانوس حملة أخرى أكبر وأكثر عدداً ، ولا أحب أن أعرضك لسخطه والمخاطرة من أجلى .

— والله ما أريد فراقك بعد هذه الصحبة .

— وأنا والله كذلك .

— أرجو ألا تنقطع عنا .

— سأعود إليك إن شاء الله .

وعاد المهزومون إلى ملكهم أرمانوس ، وأخبروه بما وقع لهم مع الصحصاح وألوف ، فغضب وتوعد بالانتقام والتنكيل بألوف ، ولكن وزيره « لوقا » قال له :

— ما هذا بصواب يا مولاى ، لأنك إذا بعثت جنودك إليها والمسلمون بالقرب منها ، وقائدهم عندها ، فسيحملها الخوف والانزعاج على اللجوء إليهم ويصير قصرها قلعة لهم . والصواب أن تمهل أمرها حتى يرحل المسلمون .

- ٣١ -

أما ما كان من أمر جيش العرب فى غيبة الصحصاح ، فإن مسلمة بن عبد الملك كان يظن عندما ذهب الرجال فى جولتهم للتفرج ليلة العيد أن الصحصاح معهم ولم يذهب وحده ، فلما كان الغد سأل عنه فلم يجده ، ولم يذكر أحد أنه رآه ، فأرسل من بحثوا عنه هنا وهناك ، فلم يظهر له أثر . . فجزع مسلمة قائلا : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، تقتل الأرض جاهلها ، ويقتلها خابرها . . إنه لم يغب إلا لأمر عظيم وخطب جسيم ، وأرجو أن تكون العاقبة خيرا .

وراح الرجال يبحثون ، وقصاص الأثر يقتفون ، ولكن الجميع عادوا آسفين كاسفى البال على أسوأ حال ، فحزن مسلمة حزنا شديدا ولم يذق طعاما ولم يغمض له جفن ، وكذلك كان حال الصديق الوفى غانم بن زاهر ، وبكى عطاف على ابن أخيه الصحصاح ، ولكن مروان بن الهيثم كان يبدو أكثرهم جلدا ، ولكنه فى الحقيقة قد داخله شىء من الارتياح والسرور ... لمنافسة الصحصاح إياه فى إمارة العرب ، والنفس أمارة بالسوء ... دخل مروان على مسلمة فرآه باكى العينين ، فقال له :

— يا ابن أمير المؤمنين لا تخف على أمير العرب . فان الأعداء إن ظفروا به يبقون عليه حتى يصالحونا برده

— يامروان كيف لا أبكى على أمير العرب ومفرج الكرب ... لو كنت اعلم أين هو وفى أى مأزق ماتوانيت عنه ولفديته بروحى . والله إن فقدت أحد إخوتى ما أحزن عليه مثل حزنى على الصحصاح .

وبينما هم كذلك إذ سمعوا صياحا وزياطا واصوات فرح واستبشار ، ودخل بعض الرجال يقولون : امير العرب الصحصاح .

— اين هو ؟

قال مسلمة ذلك وقد نهض مسرعا فرحا ، وجاءه الجواب :

— انه هناك على مشارف المعسكر .

وركب مسلمة جواده ، واخترق به المضارب ، ولما رآه الصحصاح ترجل عن جواده ، وكذلك فعل مسلمة ، والتقى البطلان فى عناق وقبلات .

ولما فرغ الصحصاح من مصافحة القوم ، وجلس مع مسلمة منفردين ، ورأى على وجه مسلمة علامات الاستفهام الممزوجة بالعتاب لغيبته المجهولة أسبابها، قال له :

— لقد رأيت مالم يره احد من العرب .

— الحمد لله على سلامتك ، هات ما عندك ، فإنى مشوق الى سماعه

فقص عليه كل ماوقع ووصف له الوف ، وحدثه بما كان منها فقال مسلمة .

— يا أخى ، أعد على هذا الحديث . فما وعيته كله ، لغرابته وشرود فكرى فى هذه الفتاة العجيبة .

فأعاد عليه القصة . فقال مسلمة مأخوذا بما سمع :

— يا أخى ، إنى اشتهى ان أرى هذه الفتاه ... ما اسمها ؟

— ألوف .

— ألوف ؟ ؟

— هل أحببتها ؟

— ما كنت أصدق قول القائل : والأذن تعشق قبل العين أحيانا ..

— فما بالك إذا رأيتها ؟

— لابد من المسير اليها يا أمير العرب .

ندم الصحصاح على البوح بأمر ألوف لمسلمة وتشويقه اليها،لا لأنه يريدها لنفسه، فقد جهد أن يصرف قلبه عنها لانشغاله بحب زوجته ليلى ومعاودة غرامه بها فى هذه الغربة ، ولكن لأنه قال فى نفسه : إذا كنت قد سلمت فى المرة الأولى فقد توقعنا المخاطرة الثانية فى الهلاك ، ولاسيما أن ملك الروم قد علم بوجودى عند ألوف ، ولابد أن الحملة التى أرسلها الى قد رجعت إليه وأنبأته بما حدث ، ولن يسكت على ذلك ، ولو هلكت أنا ومسلمة فسيتفرق جيش المسلمين ، ويتمكن منه أرمانوس ، ليتنى تدبرت الأمر ولم أندفع فى هذه الحكاية .

ثم إنه أقبل على مسلمة ولاطفه محاولا أن يصرفه عن هذه المخاطرة ، وقال له :

— ياأخى ، كم فى بلاد الروم من هن أحسن منها ، فاصبر ..

— فقاطعه قائلا :

— ياأخى ، ما بقى لى اصطبار ، وقد اشتعل فى قلبى لهيب النار . . كن لقلبى طبيبا ، وأجعل لى مثلك نصيبا .

ولم يسع الصحصاح إلا موافقته على ما أراد ، وفى اليوم التالى ركبا ، وركب معهما خمسون فارسا ، حتى بعدوا عن المعسكر ، فقال الصحصاح للفرسان : ارجعوا بارك الله فيكم ، فإننا سائران فى أمر سيظهر لكم إن شاء الله ، وإن غبنا عنكم يومين أو ثلاثه أو أكثر فلا تشغلوا قلوبكم ولا تظهروا فى المعسكر أنا غبنا .

وسار الصحصاح ومسلمة حتى أشرفا على قصر ألوف ... فأسرع اليهما الخدم والأتباع معترضين طريقهما . ورأت صاحبة القصر الصحصاح فأمرت اتباعها أن يكفوا ، وقالت له بعد أن سلمت عليه وشكرت له عودته :

— من هذا الفارس الذى يرافقك ؟

— هذا ابن أمير المؤمنين مسلمة بن عبد الملك ، قد شاقه اليك حديثى اليه عن حسن عقلك ومعرفتك بأشعار العرب وأحاديث أهل الأدب .

فابتسم ثغرها وأشرق وجهها وهى تقول :

— حبا وكرامة ...

ثم قالت فى جد وحزم :

— إنا نرحب بكما على شرط ..

— نحن طوع أمرك ، فما الشرط ؟

— أن يتقدم صاحبك فيحلف لى بالله وبدينه ألا يغدر بى ..

وتقدم مسلمة ، وحلف كما أرادت ، فقالت لهما :

— هل تحبان أن تدخلا القصر ، أو نقيم لكما سرادقا فى هذا المرج الأخضر ؟

أقبل الصحصاح على مسلمة وقال له : الصواب أن نكون فى هذا المرج ، لنكون مالكين أمرنا وقريبين من جوادينا إذا داهمنا الخطر .

لما سمعت ألوف كلام الصحصاح ، ورأت أنه إلى المرج ارتاح ، أمرت بخيمة كبيرة من الديباج المنسوج بالذهب ، فأقيمت وفرشت ببساط منقوش بأجمل الصور ، ونزل الضيفان بها ومسلمة مدهوش مما يرى ومفتون بألوف .. صامت لا يكاد ينطق .

- ٣٢ -

قالت الجارية « عنان » لسيدتها « ألوف » :

ـــ يامولاتى ، ماأجمل الأمير الذى حضر مع أمير العرب ..

قالت ألوف كأنها تتجاهل :

ـــ حقا ؟!

ـــ وإن جلالة القدر تبدو عليه ، وشمائله الحلوة تشهد له... من هو يامولاتى؟

ـــ إنه ابن ملك المسلمين .

ـــ تظهر عليه آثار النعمة ونضارة أولاد الملوك . حسن الثياب ، أنيق الملبس مشرق الوجه ..

ـــ ماهذا كله ياعنان ؟ أتتغزلين فيه ؟

قالت ألوف ذلك فى صورة الاستنكار .. وهى تشعر فى أعماقها بالراحة إلى سماع هذا الكلام ، وتود أن تقوله هى .. ثم قالت للجارية آمرة :

ـــ دعى هذا ، وأسرعى بإعداد المائدة .

وبعد أن فرغوا من الطعام ، وجلسوا يسمرون ، قال مسلمة لألوف :

ـــ إنى مشتاق إلى ماوصف لى أخى الصحصاح من حسن غنائك ياست الملاح

ـــ سمعا وطاعة .

وتناولت العود ، وضربت على نغمة عربية ، وغنت فى شعر عربى بصوت يبعث العافية فى بدن العليل . فطرب مسلمة وصاح بعد أن وقفت على أحد المقاطع

أنحن فى يقظة أم فى منام ! والتفت إلى الصحصاح قائلا : هذا فوق ماوصفته ياأمير العرب ..

ولما انتهت من الدور ، همس مسلمة للصحصاح : سبحان من أعطاها من كل شىء أحسنه .

وحضر شراب التفاح ، وشرب مسلمة والصحصاح ، وطاب السمر ، وطال السهر ، ثم قال الصحصاح لمسلمة ، وكان ذلك فى الليلة الثانية :

— لقد قضينا هنا يومين بعيدين عن الجيش ،ولا ندرى ماذا طرأ عليه .

— ياأخى ، لقد أنسانى مانحن فيه كل شىء .

فقالت ألوف :

— إن شئتما أرسلت من عندى من يكشف الأحوال ويأتى بالأخبار .

وقال مسلمة للصحصاح :

— نمكث هنا مع الأميرة هذه الليلة وغدا نعود .

والتفت إلى ألوف :

— نريد المزيد من الغناء يامن جمعت شمائل العرب إلى محاسن الروم .

فرمقته بلحظها وقد احمرت وجنتاها ، وأخذت العود ومرت بأناملها على أوتاره .. ولكنها نحته وهبت واقفة مذعورة .. إذ سمعت ضجيجا وصياحا تبينت فيه أصواتا عربية ، واضطربت واصفر لونها ، وصاحت غاضبة :

— ماهذا ياصحصاح ؟ خنتما عهد الله والميثاق ، ودبرتما الأمر كى يحضر رجالكما وتأخذونى فى الوثاق ؟

وحار الصحصاح ومسلمة ولم يدريا ماذا يقولان ... فتابعت قولها :

— أنتم مسلمون وتدعون الوفاء بالذمة والعهد ... وتعيبون علينا مذهبنا ... وقد وفيت بعهدى لك وعاديت ملك الروم من أجلك ..

فقال مسلمة ؟

ــ والله ماعندنا عن ذلك أى خبر ...

وقال الصحصاح :

ــ اجلسى ياسيدتى ، واهدئى حتى أنظر ما الخبر .

وخرج الصحصاح حيث الضجة والصياح ، فرأى جماعة من رجال الجيش العربى، فبادرهم بالسؤال :

ــ ما الخبر ؟ ماذا وراءكم ؟

فتقدم اليه أحدهم قائلا :

ــ يا أمير العرب ، كنت أجول حــول القيسارية فى زى رومى لأستطلع أخبار جيش الروم وما يدبره ملكهم أرمانوس ، كما امرتنى ، فعلمت أنه أعد حملة لمهاجمتكم فى « مرج الرياحين » وهو هذا المكان . أسرعت الى المعسكر ، ولما تفقدتكم هناك لم أجدكم ، فأبلغت النبأ الى الأمــير غانم بن زاهر الذى بادر بالركوب فى ألف من الفرسان ، وصحبته لأدله على المكان ، وكمن لهم ليلا حتى وقعوا فى حلقة من رجالنا الذين أحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيوف ، فقتل من قتل ، وفر من وفر ، وأسر الباقون وفيهم قائد الحملة وهو رجل يدعى « عبد المسيح » قاتل قتالا شديدا ، ولكن الأمير غانم هزمه وقيده .

ــ حسن ، وأين هم الآن ؟

ــ على مقربة منا .

ــ هيا بنا اليهم .

— ٣٣ —

رأى الصحصاح فى مقدمة الأسرى شيخا مهيبا ، ومن حوله عشرة من الشباب تلوح عليهم سمات الإمارة وعلو المكانة ...

والتفت الى غانم وصافحه قائلا :

ــ أحسنت ياغانم . أنت غانم الدنيا والآخرة ...

ــ هذا بهمتك يا أمير العرب وبفضل إرشادك ...

ــ تعال معى بهؤلاء الأسرى ، حتى يراهم الأمير مسلمة ، فهو هناك فى تلك الخيمة . ولما دخل الصحصاح على مسلمة وأنبأه بما وقع ، قال له مسلمة:

ــ يحسن أن نخرج اليهم ، حتى لا ترى الأميرة ألوف من أسر من قومها ، فيتغير قلبها ...

وسمعت ذلك ألوف ، فقالت :

ــ لا ، وحق المسيح ، أنا ما أتغير من هذا الحال ، فهذا شأن الحرب والقتال.

وأشارت الى مسلمة :

ــ اجلس على هذا الكرسى وهم يعرضون عليك ، حتى تكون هيبتك فى قلوبهم أعظم .

نظر مسلمة الى الشيخ الكبير ، ومن معه ، ولحه يلق نظرة خاطفة على ألوف ويطرق ... ثم نظر الى ألوف فوجدها مطرقة وقد تغـــير لونها وسال الدمع على خدها ... فقال لها :

ـــ ما لك يا أميرة ... ؟ هذا ما توقعته وأردت أن أبعدك عنه حتى لايتكدر صفوك .

وقال لها الصحصاح :

ـــ أما وعدت بغير ذلك يا أميرة ؟

فقالت من قلب مكلوم :

ـــ اعلم يا أمير العرب أن هذا الشيخ هو أبى ... وما فى الروم أكرم منه نفسا ولا أحسن منه طبعا ، ولا أسخى منه يدا ، ولا أكثر منه فهما ووعيا . وأما هؤلاء العشرة الذين حوله فهم إخوتى ، وما فيهم إلا من هو كامل الصفات ، وقد شق على الأمر اذ رأيتهم على هذه الحال ...

وساد الصمت برهة ، ثم قالت ألوف :

ـــ ان تفضلتم فوهبتمونى إياهم شكرت لكم حسن صنيعكم ، وان شئتم فديتهم بما تملك يدى ، فأنى أفديهم بروحى ...

فأسرع الصحصاح يقول :

ـــ من أجلك يكرمون ...

وأمر مسلمة بإطلاق سراحهم ..

— ٣٤ —

قال عبد المسيح لابنته :

— قد عهدتك ذات عقل وخلق ودين ، ولهذا تركتك تفعلين ما تشائين وتعيشين الحياة التى تريدينها ، وإن كنت غير مستريح إلى إعراضك عن الزواج ، ولكن ما كنت أتصور أن يصل بك الأمر إلى حد أن تستقبلى الرجال الأغراب فى دارك ، وخاصة أعداء بلادنا وديننا .

— ليس الأمر كما تتصور يا أبى ، وإننى ما زلت على ما تعهد فى ، كل ما فى الأمر أن القائد العربى ساقته الصدفة إلى ضيافتى ، وقد رأيت منه كرم نفس وحسن أدب . وكذلك صاحبه الذى أتى معه لزيارتى بعد ما سمع منه أنى أعرف اللغة العربية وأشعارها وآدابها ومعارفها .

— ولكنهم يحاربوننا ويخربون ديارنا .

— لقد عرفت من أخبارهم ومجالستهم أنهم قوم يسالمون من يسالمهم ويعادون من يعاديهم ، لا يبغون على أحد لم يمسهم بسوء ، وقد غزا جيش الروم بلادهم ، فنهب الأموال وقتل النساء والأطفال وشرد الآمنين فى ديارهم وجرعهم الأهوال ، ولما رأوا أن حملات الروم على بلاد المسلمين لا تنقطع وأطماعهم فيها لا تقف عند حد ، جاءوا يهاجمون القوى التى تعتدى عليهم حتى يأمنوا شرها ويحموا أنفسهم من عدوانها فى المستقبل . أما قولك يا أبى إنهم يخربون ديارنا فأذن لى أن أقول لك

إنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، لم يفعلوا مثل ما فعل أرمانوس فى بلادهم .
هل سمعت أنهم قتلوا أو شردوا الآمنين أو أخذوا أموالا غير ما يأخذه
المحارب من غنائم الحرب ؟ لو كانوا من أهل البغى والغدر لما منعهم
شىء من أن يأخذونى جارية مسلوبة ويستولوا على هذا القصر وما فيه
من أموال وما حوله من بساتين وثمار . ولكنهم جاءوا إلى يمدون
يد الصداقة ، وقد رأيت مسلكهم معك ومع إخوتى ، إذ حلوا قيودكم
وأعطوكم الأمان وعاملوكم بإحسان »

أطرق الشيخ مليا ثم قال لابنته :

— هل دخلت فى دينهم ؟

— ليس بعد يا أبى . .

قال فى شىء من الغضب والاستنكار :

— ليس بعد ؟ ؟ . . ماذا تعنين . . ؟ هل تريدين أن تدخلى فى دينهم ؟

— يا أبى ، أنت رجل حكيم . وهم لا يكرهون أحدا على دينهم . وأنا إذا اقتنعت به فلن أتردد فى اعتناقه .

— وماذا يكون موقفنا من قومنا ... ومن ارمانوس ؟ ؟

— أرمانوس . . أرمانوس . . هل أنت راض عن أعمال أرمانوس ؟ هل أنت راض عن ظلمه وفساده فى الداخل واعتدائه على الناس وتشريدهم فى بلادهم لمجرد رغبته فى توسيع ملكه وتحقيق مجد شخصى كاذب؟

— إنه يدافع عن المسيحية . .

— لقد عرفت يا أبى أن العرب لا يفرضون الدين على أحد ، وهم يحترمون أهل الأديان ، ولم يعتدوا على الكنائس والرهبان .

— ولكنى تعاهدت مع الملك أرمانوس أن آتيه بالصحصاح أسيرا .

— وكيف كان ذلك ؟

ــ لما علم أنه عندك استدعانى وقال لى إن هذا العربى قد تعلق بابنتك ، وهذه فرصة مواتية للاحتيال عليه وأسره ، فإن كان عندها فخذ من الفرسان من تشاء ، وأى عدد تشاء وهاجمه ، واتنى به . وإن لم يكن هناك فدعها تراسله وتبثه حبها ، وتطلب حضوره إليها فيأتى ويقع فى الفخ . . وأعطيك مقابل ذلك « قونية » وجميع ما فيها وتصير ابنتك زوجتى ، وأقدمك فى دولتى .

ــ أما أنا فلا أرضى به زوجا ، وقد كرست حياتى للعلم والحق والمعرفة ولا يمكن أن أتزوج رجلا جاهلا ظالما مثل أرمانوس على ماهو فيه من عزة الملك . ونحن لسنا محتاجين إلى المال ، لا أنا ولا أنت ، فقد وهبت لى أكثر مما يكفينى ، وعندك من الاقطاعيات الشىء الكثير .

ــ دعى عنك هذا كله ، فلا بد من محاربة العرب .

ــ ماعرفتك ياأبى متهورا ولا مسيئا إلى من أحسن اليك .

ــ إن الأمر الوحيد الذى يمسكنى عن قتال هؤلاء هو أنهم أحسنوا إلى . .

كان أبو ألوف حائرا فى موقفه من الصحصاح ومسلمة .. وكان يقلب الأمر على مختلف الوجوه . . ولكن الذى حدث بعد لم يخطر فى باله . . فقد استأذن مسلمة والصحاح فى الدخول عليه . وقال له مسلمة :

ــ أدع ألوف لتحضر مجلسنا ، فاننا سنتحدث معها ومعك فى أمر هام .

وجاءت ألوف ، وحيت ، وجلست .. ونظر مسلمة إلى الصحصاح ، فقال هذا :

ــ أيتها الأميرة النبيلة ، ماقولك فى مسلمة أخى هذا ؟

ــ ماذا تعنى ياأمير العرب ؟

ــ إنه يرغب فى زواجك .. فإذا وافقت فإنه يخطبك من أبيك .

دهش أبو ألوف وقال :

ــ وهل يتزوج المسلم مسيحية ؟

ـــ نعم ، ديننا يبيح ذلك . إن المسيحى المسالم له مالنا وعليه ما علينا ..

ـــ إذن فأنتم لا تعدوننا من الأعداء ؟

ـــ مادمتم مسالمين . وإذا تمت المصاهرة صرتم أهلا ..

فنظر الرجل الى ابنته وهو لايكاد يصدق .. وأطرق هنيهه على حين راحت ألوف تفكر فى هذه المفاجأة ..

ورفع أبو ألوف رأسه وهو يقول للصحصاح :

ماذا يفعل المرء إذا أراد الدخول فى دينكم ؟

ـــ يقول أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

ـــ أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله :.

وعلى أثر ذلك التفتت ألوف إلى مسلمة وقالت له :

ـــ إنى أفضل أن أتزوجك مسلمة ،

ونطقت بالشهادتين ، وتم بذلك إسلامها وإسلام أبيها ، وقد تسمى « عبد الله » وكذلك أسلم بعض أبنائه العشرة ، وغضب بعضهم أولا ، ثم أسلموا جميعا ، وانضموا إلى الجيش الإسلامى .

وعقد قران مسلمة وألوف ، وابتهج الجميع بهذا القران وقضوا ليلتهم فى فرح غامر وسرور عظيم .

ووقع نبأ ذلك على أرمانوس أسوا وقع ، وكاد يجن من فرط الغضب ، وأمر بتعبئة كل قوى الروم لحرب العرب ، ودعا اليه الوزير « لوقا » ليستشيره فيمن يوليه قيادة الجيش ، فقال له « لوقا » :

ـــ يامولاى ، إن جيش العرب قوى بأميره المسمى بالصحصاح ، فهو بطل صنديد وفارس عنيد ، وليس له فى أبطالنا نظير إلا « كراز » .

فقال الملك :

ـــ كراز الأرمنى ؟

ـــ نعم يامولاى .

ـــ ولكنه رجل طموح ، وأنت تعلم أنه أرسل إلى يخطب أختى ، فرددت رسوله خائبا فما جرت العادة أن يتزوج الأرمن بنات ملوك الروم . ولكن إذا حقق لنا نصرا فلا بأس .

ـــ الرأى عندى أن ترسل اليه الآن وتقول له : إن رمت أن تتزوج أختى فما أريد منك صداقا إلا رد العرب عنى وعن قومى .

ـــ أصبت ياوزير ، ياصاحب الرأى والتدبير .

- ٣٥ -

خرج كراز إلى الميدان ، وبين يديه ترجمان ، وهو يلعب بالسيف والسنان ، ونادى الترجمان :

— يا أمة محمد ، هذا أمير الأرمن كراز ، برز للقتال والطعان ، ولا يرغب فى أحد يبرز اليه إلا أميركم الصحصاح ، ومن غلب من الاثنين كان له التصرف على الجيشين .

وبرز اليه الصحصاح ، وصاح صيحة عالية رددتها الآفاق ، فتطاولت اليه الأعناق ، وما أن رآه كراز حتى حمل عليه ، وسدد الرمح اليه ، فمال الصحصاح حتى جاوزه الرمح ، ثم اعتدل على سرجه ، وطعنه فى صدره فنفذ السنان الى ظهره .

ولما نظر الأرمن والروم الى كراز وهو قتيل ، ودمه يسيل ، حملوا بأجمعهم ، فقابلهم العرب بالصوارم ، وقطعت الرؤوس والجماجم ، وبترت السواعد والمعاصم وصارت الخيل بلا قوائم . ولم تزل رحى الحرب دائرة ، والنفوس فائرة حتى ذهب النهار ، وأقبل الليل ، فافترق الجيشان ، وقد امتلأت الأرض بالقتلى ، وتردد فى الأرجاء أنين الجرحى .

وفى المساء اجتمع الصحصاح ومسلمة وسائر المقدمين فى جيش العرب ، وتداولوا فى وضع خطة للقتال فى اليوم التالى وقال الصحصاح لعمه عطاف :

— خذ ألف فارس من بنى كلاب ، وسيروا على يمين الخليج مقدار أربعة فراسخ ، واكمن بهم بحيث يكون بينك وبين القوم فرسخان ، حتى يصبح الصباح

وتخرج الروم الى الميدان . وارقبوا حتى تروهم قد هجموا علينا . وسنتقهقر أمامهم كأننا انهزمنا ، فيطمعون فينا ، ويتقدمون الينا ونحن نتراجع .. وعندما تروننا استدرنا اليهم وكررنا عليهم ، احملوا من خلفهم ، وامنعوا المهزومين أن يفروا فى المراكب .

ثم قال الصحصاح لمروان بن الهيثم :

ـ وأنت يا فارس بنى سليم ، خذ ألفا من قومك ، واقصد الى الجانب الآخر من الخليج واكمن هناك الى الصباح ، وافعلوا مثل ذلك .

فقال مروان :

ـ سمعاً وطاعة يا أمير العرب .

ولما أصبح الصباح ، ارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير والصياح ، واصطفت الصفوف ، ورتبت فى مئات والوف ولمعت السيوف ، وقربت الجموع من الجموع ، وتهاوت الرماح على الأبدان والدروع ، ثم أخذت جموع العرب تتأخر حسب الخطة الموضوعة ، والصحصاح يتقهقر ليغرى جموع الروم ويغريهم فاندفع هؤلاء وراء العرب طامعين فيهم ، وصاح الأرمن : خذوا ثأركراز من أهل الشام والحجاز .

وخاب ظن الأرمن والروم ، اذ رأوا جيوش العرب تستدير اليهم وتعمل السيوف والرماح فيهم ، والتحم الفريقان ، واشتد الضرب والطعان .

وظهر من صفوف العرب فارس على وجهه لثام ، معتدل القوام ، وراح يتقدم نحو الأعداء لايهاب الأبطال الأشداء ، ولما رأى الصحصاح هذا الفارس ، دنا منه حتى حاذاه ، وقال له :

ـ من أنت بارك الله فيك ؟

فقال الفارس بصوت رخيم :

ـ أنسيتنى يا أمير العرب ؟

ــ الأميرة ألوف ... ما الذى حملك على ذلك ؟ ولماذا خاطرت بنفسك ؟

ــ كيف أقعد عن الجهاد ؟

كونى الى جانبي ولاتبعدى عنى ، فانى أخشى عليك من أهل الغدر والطغيان .

فقالت ضاحكة :

ــ وأين كانت هذه الشفقة يوم المصارعة على شاطئ النهر ؟

ضحك الصحصاح وقال :

ــ الا تزالين تتذكرين ؟

وحثت ألوف جوادها ، فانطلق بها بين الصفوف وهى تطعن الأبطال وتجندل الشجعان فخاف عليها الصحصاح ، وحمل فى الجهة التى قصدتها ، ولكنها بعدت عنه حتى أشرفت على مكان علا فيه الغبار حتى حجبه عن الأنظار ، فدخلت فى غماره ، واذا فريق من الروم يحيط بفارس من العرب يقاتلهم وحده ، وقد ضيقوا عليه الخناق حتى أشرف على الهلاك ، ونظرت ألوف فرأت زوجها مسلمة فى ذلك الحصار ، فحملت على القوم حتى كشفتهم عنه . وهم بالخلاص وهو يعانى الجراح ، ولكن الروم قطعوا قوائم جواده ، وفعلوا مثل ذلك بجواد ألوف ، فوقفت على الأرض وقاتلت وكافحت أشد كفاح ، وهى تدافع عن مسلمة وعن نفسها . ثم أقبل الصحصاح ففر الروم ، وتبعهم بالضرب والطعن ، ثم عاد الى مسلمة ، فوجد ألوف تضمد جراحه وهو غائب عن الوعى . ولما تنبه مسلمة التفت إلى الفارس الملثم وقال له :

ــ من أنت أيها المجاهد الكريم ؟

ــ أنا يا مولاى جاريتك ألوف .

فصاح مسلمة فى دهشة وفرح :

ــ زوجتى وحبيبتى ... جزاك الله عنى خير الجزاء .

وفى خلال هذه المعمعة كان عطاف ومن معه من الفرسان ، ومروان ومن معه قد أطبقوا على جيش الروم من خلفه . وقاتل العرب فى هذا اليوم قتالا شديدا ، فقتلوا وأسروا وأخذوا السفن والأمـــوال والخيول والسيوف والرماح من الأعداء . وغرق كثير من المنهزمين وهم يحاولون النجاة ، لم يستطيعوا الوصول الى المراكب فألقوا بأنفسهم فى الماء ... ولم ينج منهم إلا القليل .

- ٣٦ -

أقبل الصحصاح على مسلمة ، وقال له :

ــ كيف حالك يا بن أمير المؤمنين ؟

ــ بخير والحمد لله .

ــ هل التأمت جراحك ؟

ــ نعم ، ولا أنسى فضل الزوجة الوفية ألوف ، فقد تعهدتنى بالعلاج وتولتنى بالعنـــاية .

ــ ونحن جميعا لاننسى فضلها فيما أحرزناه من نصر لقد قاتلت كأشجع فارس من العرب .

ــ وكانت لجراحى بلسما .

ــ متعكما الله بالخير والسعادة .

ثم قال الصحصاح :

ــ لقد غنمنا غنائم كثيرة ، فيها من الذهب والفضة ما لايحصى .

ــ أكبر الغنائم عندى ثواب الله وما يعود على المسلمين بالخير .

ــ أجل يا ابن أمير المؤمنين ، ولابد أن نحقق ماخرجنا من أجله ، فنؤدب أهل الغدر حتى لايعودوا بعد ذلك الى العدوان على ثغور المسلمـــين وتشريد الآمنين .

ـــ لابد يا أمير العرب من فتح القيسارية ، فهى معقل هؤلاء القـــوم ومقر الطاغية أرمانوس ، وما أبالى بعد ذلك ما يصيبنى حتى الموت ، لقدخرجنا لأحد أمرين : النصر ونشر كلمة الحق ، او الاستشهاد فى سبيل الله ،

ـــ إنى أفديك ايها الأمير بنفسى .

ودخلت عليهما الأمير ألوف ، فحيت الضحصاح قائلة :

ـــ سعدت مساء يا أمير العرب .

ـــ أسعدك الله بالخير ، كما أسعدك بالإيمان .

وجلسوا يسمرون ، حتى قالت ألوف :

ـــ لقد بلغنى أن أرمانوس ارسل الى ملوك الإفرنج يستعين بهم فى قتال العرب

قال مسلمة :

ـــ إن الله الذى بعنا له نفوسنا لن يخذلنا .

وقال الضحصاح :

ـــ إنا نسير الى القيسارية ونحاصرها ، ومن قاتلنا قاتلناه ، وصبرنا على أذاه ، والله يفعل ما يشاء .

وقالت ألوف :

ـــ نعم الرأى يا أمير العرب .

- ٣٧ -

واذن فى جيش المسلمين بالرحيل الى القيسارية ، وضربوا الخيام حولها ، وطاف منادى المسلمين فى ضواحيها والقرى القريبة منها يقول: يا أهل البلاد، أمير العرب يقول لكم لا تخافوا على أنفسكم ولا على اموالكم ، واعلمو أننا ماجئنا إلا لحرب أرمانوس وجنوده الذين اعتدوا على ديارنا ، وشردوا أهلها ، ونهبوا أموالها ، وقتلوا النساء والأطفال ، فباشروا أعمالكم وازرعوا أرضكم ، وزاولوا صناعاتكم ، واذهبوا الى كنائسكم ، وأدوا عبادتكم فى أمن وسلام .

فاطمأن أهل البلاد ، واستقر العرب فى منازلهم حول المدينة ، وقضوا ثلاثة أيام فى راحة واستجمام . وفى اليوم الرابع نادى الصحصاح فى الرجال أن يتقدموا الى الحرب والقتال ويزحفوا الى الأسوار . ولما اقتربوا منها انهالت الأحجار عليهم من فوق القلاع والديار ، فتصايح الأبطال ورشقوهم بالنبال ، فردوا عليهم بالمثل وقذفوهم بمشاعل النار .

ولما رأى الصحصاح أن العاقبة ستسوء من هذا الهجوم ، صاح فى الناس أن كفوا عن المدينة وعودوا الى مضاربكم ، وقال : من الحكمة أن نرجع الى الصواب ونعمل بقول الله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ونكتفى بحصار القوم حتى يفعل الله ما يشاء .

وظل العرب مقيمين حول القيسارية يمنعون الداخل إليها والخارج منها عشرة أيام طابت لهم فيها الإقامة ، وتعاملوا مع أهل القرى والضواحى أحسن معاملة،

إذ كان أهل البلاد ساخطين على ملكهم أرمانوس ، لفساده وظلمه واستئثاره هو وأتباعه ورجال حكومته بالخيرات والنعم دونهم ؛ وقد أمر الصحصاح ألا يأخذ أحد منهم شيئا إلا بثمنه .وكانت الأموال التى حصل عليها العرب غنائم من الحرب لا تحصى . وقد وهب عبد الله ابو ألوف ثروته وضياعه لجيش العرب . وعاش معهم هو وأولاده كأفراد منهم وذلك بعد ان راى الصحصاح ومسلمة ومروان بن الهيثم وسائر القواد والأبطال العرب يساوون بينهم وبين جميع الرجال والجنود . فلا يختصون انفسهم بترف او نعيم ، كما يفعل كبار الروم . وقال لأولاده وقد راى امتعاضا من بعضهم : لقد كنا نستأثر بالأموال ونكتسب بها مكانة ورفعة فى دولة الروم . اما وقد دخلنا فى دين الاسلام وذمة العرب الذين لا يعرفون الإقطاعيات فلا حاجة بنا الى هذا المال الكثير . ويكفينا القليل وما يجرى علينا من الأرزاق التى تجرى على رجال العرب والمسلمين . وردد قول الله تعالى : «إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »

* * *

ولما كان اليوم الحادى عشر لحصار القيسارية نظر العرب فاذا غبار قد علا وثار حتى سد منافذ الأقطار ، فارتفعت الأصوات ، وتعالت الصيحات ، وقالت «ألوف»: هذه جيوش الإفرنج قد أقبلت بقيادة ملكهم « عملاق » لنصرة أرمانوس .

وهجم عملاق بجنوده ، واستقبلهم العرب بالرماح ، وصاح الروم من فوق الأسوار ، وقذفوا بالأحجار ، وامتلأ الجو بالغبار ، حتى صار لايعرف الليل من النهار .

ولما أطبق ظلام الليل ، انفصل الفريقان ورجع كل فريق الى مكانه ، وأقبل الصحصاح على قومه وقال لهم :

— والله مارأيت مثل هذا اليوم ... ولقد رأيت فيهم فارسا مارأيت قط أشجع منه .

وقال واحد من القوم :

ـــ والله ياأمير العرب ، لقد قتل منا خلقا كثيرا ..

وقال آخر :

ـــ إننا نستعين عليه باللطيف الخبير ..

وقالت ألوف :

ـــ انه « عملاق » الجبار ..

وقال الصحصاح :

ـــ موعدى معه فى الصباح .

وبات الناس تلك الليلة وكثير منهم يئنون من الجراح ، الى أن جاء الصباح ، وارتفعت الضجات من هنا وهناك ، وخرج من صفوف الإفرنج ترجمان ينادى بالعربية :

ـــ يأيها العرب ، اعلموا أن قائد هذا الجيش هو الملك عملاق الذى انتشر صيته فى الآفاق ، وهو ملك الإفرنج المتوج ، ونائب أرمانوس على جميع الجيوش . قد وصلت اليه أخبار ملككم الصحصاح وما أزهق من أرواح، فهو يطلبه للقتال والكفاح ..

وما أتم المنادى كلامه حتى خرج من صفوف الإفرنج فارس آخر ، يصول فى الميدان ، ويصيح فى الترجمان : ناد باسم ابن خليفتهم مسلمة ، كى يبرز لى فى المعمعة .

ونادى المنادى ، وخرج الصحصاح ، والتفت فرأى الى جواره فارسا يخرج من الجيش العربى ظنه مسلمة ، اذ رآه يلبس ثيابه ودرعه وقد غطى وجهه بطرف عمامته .. فقال له :

ـــ ارجع انت يا ابن أمير المؤمنين ، وأنا بعون الله اكفيك الاثنين ..

فقال الفارس :

ـــ كن أنت مع خصمك ودعنى للآخر ..

ولما سمع الصحصاح صوت الفارس عرف أنه « ألوف » فقال لها :

ـــ ارجعى وأنا أكفيك شر الاثنين .

فقالت بإصرار :

ـــ لا . . لاتحرمنى شرف الجهاد ، واعلم أنى ماخرجت إلا بعد أن أذن لى مسلمة .

وحمل كل منهما على خصمه ، ووجد الصحصاح فى خصمه « عملاق » مقاتلا عنيدا شديد البأس ، يجيد فنون الضرب والنزال ، وقد تضاربا بالسيفين ، حتى تكسر النصلان ، ولم يبق فى يديهما غير المقبضين . وفجأة صاح الصحصاح بعملاق صيحة أدهشته وأرعشته .. وفى لحظة خاطفة مد يده اليه واقتلعه من سرجه وأهوى على رأسه بمقبض السيف ، ولكن عملاق ظل يقاوم ، ولم يمهله الصحصاح ، إذ عاودضربه على رأسه حتى شقه ، فوقع صريعا خامد الأنفاس .

وهاج الإفرنج ، وحملوا على الصحصاح ، وقابلهم فرسان العرب بالسيوف والرماح ، فلم يصبروا على الضرب والكفاح ، وولوا الأدبار ، وركنوا الى الفرار .

ولما انتهت المعركة أسرع مسلمة الى الصحصاح ،وهنأه بالنصر والسلامة ، وقال له:

ـــ اخبرنى ، ماذا كان من ألوف ؟

فقال الصحصاح :

ـــ لقد غابت عن عينى فى الميدان ، ولم أرها حتى الآن ..

فقلق مسلمة ، ولكنه تذرع بالصبر .. واذا ألوف تقبل على جوادها وفى يدها رأس الفارس الذى برزت له ، وقابلتها الأصوات بالتهليل والتكبير ، وقال لها مسلمة:

ـــ لم أشأ منعك من الجهاد ، ولكن اعلمى انها كانت مخاطرة .

ـــ وماذا فى المخاطرة ؟ إنى إذا مت كنت شهيدة ، وإذا عشت أكون سعيدة .

وفى اليوم التالى خرج جيش الروم بقيادة أرمانوس وانضمت اليه الإفرنج ، وهجموا على العرب فركب الصحصاح ، وركب الأبطال ، ودارت رحى القتال ، وراح الصحصاح يبحث عن أرمانوس فى الميدان ، ويقصد اليه كى يجهز عليه . ولكن

أرمانوس خاف على نفسه ، فولى هاربا ، وفرسانه من خلفه . ولما رأى الإفرنج ذلك قالوا : إن ملكنا قد قتل ، وملك الروم يفر .. ونحن قد جئنا من أجلهم ، فتركونا وذهبوا .. فلماذا نبقى وحدنا فى الميدان ؟ وأسرعوا الى سفنهم عائدين الى ديارهم ..

- ٣٨ -

طال حصار العرب للقيسارية ، ولكنهم لم يجدوا فى فترة الحصار متاعب تذكر ، بل على العكس قضوا هذه الفترة فى استجمام ، وتوافرت لهم فيها الراحة والخيرات ، وساد السلام بينهم وبين أهل البلاد المحيطة بالمدينة ، لحسن معاملة العرب لهم وشعورهم بالأمن إلى جوارهم ، ورواج بضائعهم ومحصولاتهم .

وأما أهل القيسارية فقد ساء حالهم ، وقل طعامهم ، فقد انعدم الوارد إلى المدينة وكاد ينفد ما ادخروه ، وضج الناس وكثرت الشكايات . واستولى على الناس الفزع من سوء العاقبة . وحار أرمانوس فى أمره ، فدعا إليه الوزير « لوقا » وقال له :

ـــ ماذا ترى أيها الوزير فيما صار إليه الحال من حصار العرب للمدينة ؟

ـــ لك الرأى والتدبير يا مولاى . .

ـــ هل نخرج إلى حربهم ؟

ـــ مرة ثانية ؟ ؟

ـــ فقل إذن ماذا نفعل ؟

ـــ خطرت لى فكرة يا مولاى . .

ـــ هاتها . .

ـــ تكتب إلى « بخطوس » ملكة الكرج ، طالبا منها النجدة ، وهى كما تعلم

يا مولاى ملكة عظيمة ، وانتصاراتها فى الحروب مشهورة ، وطالما قتلت الرجال وأبادت الأبطال .

سكت أرمانوس قليلا ، ثم قال :

ــ ما رأيت وجها أقبح من وجه هذه المرأة . .

ــ وما علينا من ذلك ؟ إننا نستنجد بها لتنصرنا على أعدائنا ، وما يهمنا منها شيء غير ذلك . .

ــ وهل تراها تلبي دعوتنا ؟

ــ إنها يا مولاى مثلنا تكره العرب ، وقد أغارت على أطراف مملكتهم ووقعت بينها وبينهم معارك ، وتبعوها إلى بلادها ، وفتحوا بعض ثغورها ، ولكنها استطاعت أن تحمى منهم ملكها . .

ــ ألا يحملها ذلك على الخوف منهم ؟

ــ إنها إمرأة جسور ، لا حد لأطماعها ، وستدفعها الرغبة فى الانتقام من العرب وكسر شوكتهم إلى سرعة الحضور لملاقاتهم وقتالهم . .

ــ حسن أيها الوزير ، اكتب إليها باسمى ، وأعلمها بجلية الأمر . .

— ٣٩ —

قال الصحصاح لمسلمة :

— يا أخى ، هل لك مرام فى الصيد ؟

— وأى مكان هنا يصلح للصيد ؟

— نسير فى الفلوات حتى نجد مانريد .

— ولكننا فى بلاد الأعداء ولا نأمن على أنفسنا إذا بعدنا عن المعسكر

لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، وقد ضاقت صدورنا ، وعدونا محصور ، وجيشهم مكسور ، وطال علينا أمد الركود فى هذا الحصار ، ومللنا الانتظار .

— إذا كان الأمر كذلك ، فلتصحبنا جماعة من رجالنا .

وانتخبوا من الفرسان خمسمائة ، وخرجوا ليلا ، ومعهم عدة الصيد ، وساروا ، وظلوا سائرين إلى وقت الضحى ، فأشرفوا على أرض معشبة تنتشر فيها الرياض ، وتتلون مناظرها بألوان الأزهار ، فطاب لهم النزول ، وربطوا الخيول بالأشجار ، وأخذوا يجولون فى طلب الصيد . وكانت الأرض مبتلة وبعض بقاعها مملوءة بالماء الكثير مما نزل بها من الأمطار . ثم وجدوا أنفسهم يغوصون فى الماء والأوحال ، حتى تعذر عليهم المشى ، ولم يستطيعوا التقدم أو التأخر . .

وفجأة أظلم الجو ، وراعهم منظر جيش كبير يتقدم منهم ، وأحاط بهم الجنود من جميع الجهات ، وحاولوا النجاة والوصول إلى خيولهم ليركبوا

ويدافعوا عن أنفسهم ، فلم يستطيعوا وانقض عليهم الجنود وأمسكوا بهم فردا فردا . . وأخذوهم فى القيود والأغلال .

وكان فى الفرقة العربية أخ من أخوة ألوف ، فلما رأى جنود الجيش المهاجم عرف أنهم جنود « الكرج » فقال منزعجا :

ـــ هذه « بخطوس » أتت بجيشها لنصرة أرمانوس . .

وساق الجنود مسلمة والصحصاح وأصحابهما مغلولى الأيدى ومربوطين بالحبال ، حتى أدخلوهم على بخطوس وهى جالسة على سرير مذهب فى خيمة من الديباج الأحمر ، فقالت لهم بلسان عربى :

ـــ ويلكم ياكلاب العرب . . وحمالى الحطب . ! كيف تجرؤون على هذه البلاد وتغزون أهلها ؟ وحق المسيح لأذيقنكم كأس المنية .

ثم صاحت بصوت كأنه الرعد القاصف وقالت :

ـــ خذوهم واضربوا رقابهم . .

فأخذوا واحداً منهم وضربوا رقبته فاطاحوا برأسه . . وكان التالى له رجل عملاق من أشداء العرب يسمى « مدلاج » وكان فى أول زمانه يقطع الطريق وينهب القوافل ثم تاب وضمه الصحصاح الى رجاله وصار من قواد جيشه . قال مدلاج فى نفسه وهو يرى القوم يدنون منه لضربه : كيف يقتلنى هؤلاء الأنذال وأنا بطل من الأبطال ؟ . . وتمطى . . وحرك ساعديه . . فتقطعت الحبال . . فأحاط به الجنود من كل مكان ، واقترب أحدهم منه ، فلكمه لكمة قضت عليه ، وتقدم آخر ففعل به مثل الأول حتى قضى بلكماته على عشرة من الجنود .

ونظرت بخطوس الى مدلاج ، وتأملته ، ثم صاحت بجنودها .

ـــ خلوا عنه . . لقد أعجبتنى شجاعته ، انصرفوا جميعا ، واتركوا لى هذا

العملاق . خذوا بقية الأسرى وإياكم أن تغفلوا عنهم ، قدموا لهم الطعام والشراب ، حتى ننظر فى أمرهم .

وجعلت بخطوس تتودد الى مدلاج وتلاطفه ، وأمرت بالطعام والشراب ، وأكلت معه ، وقدمت له كأسا من الخمر ، فقال لها :

ــ أنا رجل مجاهد وهذا حرام .

فقالت له :

ــ دع عنك هذا الكلام . فقد منحتك حياتك ، وأبقيت على قومك من أجلك ، وحق المسيح إن تنصرت لأجعلنك موضع ملك الروم .

فكر مدلاج فى موقفه : ورأى أن يسايرها حتى يجد الفرصة للخلاص ، فقال لها :

ــ إنى أبادلك المودة ، وأشعر بالميل الى دينك ، ولكن طبعى لا يميل الى شرب الخمر .

ففرحت بخطوس ، وقالت له :

ــ لا بأس . كن على راحتك وما يوافق طبعك وهواك .

وأقبل الليل ، وأفرطت بخطوس فى الشراب ، وغلب عليها السكر ، فنامت ، وعلا غطيطها ، فقال مدلاج فى نفسه : هذا وقت الفرصة ، وقام اليها ، وجذب سيفها ، وكان معلقا فوق رأسها ، وغرز نصله فى صدرها بكل قوته فنفذ الى ظهرها ثم نزعه وخرج من جانب الخيمة ، وتسلل بين الخيام ، والقوم نيام ، حتى كان بإزاء خيمة سمع من فيها يقول : لقد خرجنا من عسكرنا فى وقت مشئوم ، فلا حول ولا قوة الا بالله العظيم . فدخل ، فرأى الصحصاح يعالج قيده كى يفكه فقال له :

ــ السلام عليك يا أمير العرب .

— عليك السلام يا مدلاج ... ماذا وراءك ؟

— ورائى الفرج والنجاة من الكرب .

وقص عليه ماحدث ، وقطع قيده بالسيف ، وأيقظ مسلمة والنائمين من الرجال. وفك قيودهم وأغلالهم .

وضحك الجميع ومدلاج يحكى لهم قصة غرامها به ، وكيف كانت تريد أن تضعه مكان « أرمانوس » على عرش القيسارية ... ثم هجموا على جماعة من الحراس وأخذوا أسلحتهم وركبوا الخيول ، وهاج جنود الكرج وماجوا ، وصاح فيهم العرب بصوت واحد : الله أكبر وقالوا لهم : قد قتلنا ملكتكم ، ولا نجاة لكم ، وأوقعوا فيهم السيوف ، وأنزلوا بهم الحتوف ، وأسرع بعض الكرج الى سرادق ملكتهم ، فوجدوها هالكة ، فانحلت عزائمهم ، واشتد فزعهم ، وداخل بعض كبرائهم الطمع فى المملكة ، فقاتلوا قتالا شديدا وخفى بعضهم على بعض فى الظلام فقتل بعضهم بعضا ، وتوهموا أن جيش العرب اقبل عليهم ، واحاط بهم . وكانت أصوات التهليل والتكبير تقع فى أذانهم وقع السيوف فى أجسامهم ، فاستولى عليهم الذعر ، وصار الواحد منهم يجرى فيرى فى طريقه أخاه فيظنه من العرب فيضربه ويعدو... ولم يكن امام من ينجو منهم من الموت إلا الفرار .

وتركوا أموالهم وأثقالهم وخيامهم غنيمة للمسلمين . وما ان أصبح الصباح حتى وجد العرب بين أيديهم أموالا لا تحصى ، وفيها تيجان بخطوس ودروعها المرصعة بالذهب والجواهر .

وقال مسلمة للصحصاح :

— انظر يا أخى ، كيف كنا أمس وكيف أصبحنا اليوم ، لقد ندمت على خروجنا إلى هذا المكان ، وصدق الله العظيم اذ قال تعالى : وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

وقال الصحصاح :

— ان الفضل فى ذلك يرجع الى مدلاج .

فقال مدلاج مازحا :

— بل قل يا أمير ان الفضل يرجع الى الهيام بمدلاج !

وجاراه مسلمة فى المزاح قائلا :

— ولماذا قتلت حبيبتك يامدلاج ... ؟

— أعوذ بالله يا ابن أمير المؤمنين ... لقد كان وجهها كوجه القرد ، وماصبرت على شيء أبغض الى مثلما صبرت عليها .

قال مسلمة وهو يغرق فى الضحك :

— كان ذلك من الجهاد ... فليس الجهاد بالسيف وحده !

وسكت مسلمة قليلا ، ثم قال :

— لو وصلت بخطوس الى القيسارية بجيشها ، وخرج معها الينا أرمانوس بجنوده ، فلا يعلم إلا الله على من كانت تدور الدوائر .

وقال الصحصاح :

— لقد ساقنا الله الى هذا المكان ليكفينا ذلك الشر ولنظفر بهذه الغنائم والأموال التى ستعيننا على البقاء والصبر فى محاصرة الروم حتى يأذن الله فى فتح القيسارية .

وسكت الصحصاح قليلا ، ثم قال :

— انى يا ابن أمير المؤمنين لا أرى من الصواب الانتظار حول القيسارية حتى يسلم أهلها ، فان أرمانوس — كما علمت — ملك مستبد عنيد ، ولا يهمه أن يجوع الناس أو يتعذبوا وهو يختزن فى قصوره ما يكفيه دهرا طويلا .

فقال مسلمة :

ـ ألا يثور الناس عليه ؟

ـ قد يكون ذلك ، ولكن انتظاره يطول .

على أى حال لندع هذا الآن ، ولنأخذ فى نقل هذه الغنائم ، ونسرع فى العودة الى الجيش حتى لا يفاجئه أرمانوس فى غيبتنا .

— ٤٠ —

لما علم أرمانوس بما وقع لمملكة الكرج ضاقت الدنيا فى وجهه ، واضطرب فى أمره ، وقال :

— ما المسيح إلا مسلم ، كما يقول المسلمون ، وإلا ما نصرهم مرة بعد مرة ، وما هذه إلا مصيبة نزلت علينا .

فقال له البطريق :

— يامك لا تكفر .

فسكت مغيظا وهو لا يطيق السكوت ... وقال الوزير « لوقا » :

— يامولاى ، ان أهل المدينة ضاقوا بالصبر على الحصار ، ومات الكثيرون من الجوع ، وملئت الطرقات بجثث الرجال والنساء والأطفال ... حتى الأغنياء لم يجدوا بذهبهم طعاما فأكلوا القطط والكلاب .

وقال أرمانوس وهو يكتم غضبه :

— وماذا ترى أيها الوزير ؟

— الرأى عندى يا مولاى أن نرسل الى العرب رسولا يسألهم ماذا يريدون منا ، فان رأينا مطالبهم معقولة ، وشروطهم مقبولة ، عقدنا الصلح معهم .

— وإن لم يكن كذلك ؟

— فكرنا فى تدبير آخر .

وقال البطريق :

— ما يقوله الوزير صواب ياملك .

وسكت أرمانوس قليلا ، ثم قال :

— اسمعوا لن يكشف هذا البلاء أحد غيرى ... لقد عولت على أن أذهب الى العرب متخفيا فى زى البطريق بصفة رسول من الملك ، فأرى بنفسى ماذا يريدون ، وأتعرف على ما أستطيع من أحوالهم

وقال الوزير :

— حسن مارأيت يامولاى ، ولكننا نخشى أن يكشفوا شخصك ويعرفوا حقيقتك .

— فليكن مايكون .

ولبس أرمانوس ملابس البطريق ، وخرج الى العرب ، راكبا بغلة ، وممسكا بيده راية السلام ... وأخبر به مسلمة والصمصام ، وكان من الجالسين معهما عبد الله والد ألوف ، فهم بالانصراف مع المنصرفين ، ولكن مسلمة قال له : ابق معنا حتى تترجم لنا مايقوله .

ودخل ارمانوس فى زى البطريق ، فاستقبلوه مرحبين به ، وقالوا فى أنفسهم ان الروم أرسلوا بطريقهم لأنه اكرم من عندهم ، ولما تكلم دهش عبد الله ، وتفحصه ... ثم اسر إلى مسلمة :

— انه ارمانوس !

فتعجب مسلمة ، ثم قال له :

— بحق ماتعتقد من دينك ألست ارمانوس ؟

وقد لحظ ارمانوس همس عبد الله لمسلمة ، وفوجىء بسؤال مسلمة وتحليفه اياه ، فلم يجد بدا من ان يظهر شخصيته ، وقال :

ـ نعم ، انا ارمانوس ، وقد القيت السلاح واتيت براية السلام .

وقال يريد ان يمهد للدخول فيما جاء من أجله :

ــ اعلم ايها السيد انه ما اثر عن الأنبياء امر بقتل العباد وتخريب البلاد.

فقال الصحصاح بسخرية وازدراء :

ــ ولهذا ذهبت إلى بلاد العرب لتخريبها وتقتيل اهلها !

فقال مسلمة وهو ينظر إلى الصحصاح نظرة ذات معنى :

ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكرموا عزيز قوم ذل .

ثم قال ارمانوس للصحصاح :

ــ يا امير العرب ، فلندع ما مضى وننظر ما نحن فيه .

ــ هات ماعندك .

ــ إن كنتم تريدون مالا أعطيناكم ... لكل مقاتل خمسة دنانير ، ولكل قائد عشرة ... ونظر الى الصحصاح ومسلمة قائلا :

ــ ولكما ما تريدان ...

ــ اعلم أيها الملك أننا ماجئنا الى هذه البلاد من أجل مال تساومنا به ، واعلم أننا وقواد جيشنا لا نخص انفسنا بما يميزنا عن بقية الرجال، ونحن نقسم الغنائم بالعدل والمساواة ...

ــ أعلم أنكم جئتم لنشر دينكم ...

قال مسلمة :

ــ لقد خرجنا للدفاع عن ثغورنا ، وتبعناكم حتى لاتعـــودوا الينا ، ونحن لا نكره أحداً على الإسلام ، ولعلك تعلم أن فى جيوشنا من نصارى الشام من أتوا مشاركين لنا فى الدفاع ولهم مالنا وعليهم ماعلينا .

وقال عبد الله :

ــ أتسمع هذا يا أرمانوس ؟

— ماذا تعنى يا عبد المسيح ؟

— لست الآن عبد المسيح .. فالمسيح وأنا من عباد الله. وجوابى عن سؤالك هـــو أنك حاولت أن تثير المسيحيين فى بلاد النصرانية ضد المسلمين باسم الدين ...

وقال أرمانوس :

— على أية حال ... أتيت الآن من أجل المصالحة والسلام ، فافضوا الى بما تطلبون ونحن نجيبكم .

وتداول الصحصاح ومسلمة فيما بينهما متخاطبين باللغةالعربية،ثم قال الصحصاح لأرمانوس :

— رضينا بالصلح على أن تدفعوا الى بيت مال المسلمين ضريبة كل عام ، وأن يكون فى القيسارية نائب عن أمير المؤمنين ، وأن تؤمنوا كل من يدخل فى دين الإسلام من قومكم ، وقبل أن نعود الى ديارنا ندخـــل مدينتكم ونبنى فيها مسجدا لاقامة شعائر الإسلام .

قال أرمانوس :

— إنى موافق على ذلك ، ولكنى أرجو أن تمهلونى حتى أشاور البطارقة فى مسألة بناء المسجد وأمر من يرتد عن النصرانية ويدخل فى دين الإسلام .

— لك ذلك .

وأهدى الصحصاح الى أرمانوس جـــوادا عربيا من جياد الخيل ، كى يركبه بدلا من البغلة التى جاء عليها .

– ٤١ –

لما سمع البطارقة كلام أرمانوس ، وهو يحكى لهم ماجرى وتم بينه وبين العرب غضبوا وهاجوا .. وقال البطريق الأكبر :

ــ فليأخذ العرب ماشاءوا من الأموال ، أما أن يبنوا مسجدا فى مدينتنا يكون مثابة للمرتدين عن دين المسيح فاننا لا نرضى به ، ولا نقبل أن يعيش بيننا هؤلاء المرتدون .

قال أرمانوس :

ــ وأى بأس فى ذلك وقد رأيت الكنائس فى بلاد العرب يؤمها المسيحيون هناك ويؤدون عبادتهم فى أمان ؟

فقال البطريق الأكبر :

ــ ياأرمانوس ، مافعل هذا أحد من ملوك الروم قبلك .

قال أرمانوس وهو يملك نفسه :

ــ وماذا نفعل والمدينة قد ساء حالها من الحصار ، وانهزم من أتى لها من الأنصار ؟ وانى أصارحكم بأنى رأيت من العرب رجالا لو اتجهوا الى الجبال لأزالوها .

ثار البطريق الأكبر عند سماع هذا وقال :

ــ ماذا جرى لك أيها الملك ؟ ان كان قلبك قد مال الى دين العرب فاذهب اليهم ودعنا ، والرب يحمى القيسارية ، وحق المسيح لانرضى بهذا أبدا .

ــ ان قلبي لم يمل عن المسيحية قط ، ولكن المرء إذا غلب على أمره فلا مناص له من أن يلقى سلاحه ..

ــ من الذى يتكلم ؟؟ أهو الملك أرمانوس ؟؟انى لا أصدق سمعى ..

ــ اسمع يا أبانا البطريق ، لقد كان أرمانوس جبارا عنيدا ، غزا البلاد وقتل العباد ، ثم ماذا كانت العاقبة ؟؟

وتدخل فى الحديث رجل يقال له « شماس » كان صامتا ، ولما رأى الأمر بين الملك والبطريق الأكبر وصل إلى هذا الحد ، . تقدم إلى الملك قائلا :

ــ ليأذن لى مولاى الملك أن أعرض عليه أمرا ينقذنا من العرب .

ونظر اليه البطريق شذرا وقال :

ــ من ؟ شماس ؟ أنت زائغ العقيدة ، تنتمى إلى الكنيسة رياء ولا ينبغى أن يقبل منك رأى ..

ــ يا أبانا ، استمع إلى قولى ، فإن لم يعجبك فلا تلتفت اليه وكأنى ما قلته .

قال أرمانوس :

ــ ماذا تريد أن تقول ياشماس ؟

ــ عندى يامولاى تدبير للقضاء على العرب .

ــ قل ، ماذا عندك ؟

ــ أن تأمر باعداد سم .. آخذه وأذهب به إلى جيش العرب وأحتال حتى أضعه فى طعام قادتهم وكبارهم ، وخاصة أميرهم الصحصاح وابن خليفتهم مسلمة ، فإن مات هؤلاء سرى الخوف الى جنودهم وضعفت قوتهم وعادوا الى بلادهم خائبين .

ــ وكيف تدخل عليهم ؟ وكيف يأمنون لك ؟

ــ دع هذا يامولاى لعبدك شماس ، فهو به خبير ..

قال البطريق الأكبر ساخرا :

— دع هذا له فما يحسن غيره ..

وقال أرمانوس لشماس :

— ولكني أريد أن أعلم خطتك .

— سأذهب اليهم فى هيئة عابد مسلم تقى زاهد ، أسره الروم وعذبوه ، وتمكن من الفرار .

وفكر أرمانوس ، ومال الى أن يجارى شماسا ويجيبه الى مايطلب ، كما يتعلق الغريق بأى شىء وهو يحاول النجاة من الغرق . وأمر بإعداد السم وإعطائه لشماس.

— ٤٢ —

انطلت حيلة شماس على الصحصاح ، إذ أجاد تمثيل دوره كشيخ مسلم عابد ، فجعل يصلى طول الليل ويكثر من الدعاء ، ويتظاهر بالزهد والرغبة عن الطعام ومتع الدنيا ، فقربه الصحصاح إليه وأكرمه واستزاده من الدعاء لجيش العرب بالنصر . أما ألوف فلم تسترح إليه وأعربت عن شكها فيه ، وأما مسلمة فإنه لم يعبأ بأمره .

وفى إحدى الليالى تسلل شماس إلى مطبخ المعسكر ، والطباخون نائمون ، فوضع السم فى الطعام ، وخرج مبكرا دون أن يشعر به أحد ، وانسل عائدا إلى القيسارية يبشر الملك بنجاح خطته .

وفى الصباح وضعت الموائد ، وما كاد الصحصاح ومسلمة ومن معهما يبدأون الأكل حتى أقبل عليهم أحد الرجال يقول :

ـــ لا تأكلوا ، فإن الطعام مسموم .

وارتفعت الأصوات فى فزع :

ـــ الطعام مسموم ؟

وترددت الكلمة فى المعسكر : الطعام مسموم ... الطعام مسموم . .

وكان بعض الطباخين والجنود قد بادروا إلى المطبخ وأكلوا ، فقتلهم السم ، وانتشر الخبر ، فأمسك سائر الجيش عن الطعام .

واستدعى مسلمة الطباخين ليسألهم عمن وضع السم فى الطعام ، وبكى الأحياء منهم على من مات ، وقالوا إنهم لا يعلمون شيئاً ، وقالت ألوف :

— والله الذى شرح صدرى للإسلام ، ما وضع السم فى الطعام إلا العابد الزاهد ! وما هو فى الحقيقة إلا خائن خادع . وقال لها الصحصاح :

— لا تقولى هذا يا أميرة . . فإن الرجل يتلو القرآن الكريم ويروى الحديث الشريف .

— يا أمير العرب ، أنت رجل طيب بفطرتك البدوية ، واعلم أن هذا الرجل من الروم الذين اختلطوا بالعرب وتعلموا لغتهم ، وقد قرأ وحصل معارف الإسلام دون ان يدخل منها شىء إلى قلبه .

وطلب الصحصاح الشيخ ليتحقق من أمره ، فلم يجده ، وبحثوا عنه دون جدوى . .

وقالت ألوف لأحد أخوتها ، وكان قد تسمى بمحمد :

— يا محمد ، أنت الذى تستطيع أن تكشف لنا هذا الأمر .

— مرى بما تشائين ، وإنى لك مطيع .

— خذ رأسين من رؤوس الذين ماتوا بالسم ، واذهب إلى أرمانوس وادع أنك ناقم على العرب وساخط على ، وقل له : هذان رأسا مسلمة والصحصاح ، وقد قتلهما السم ، وفى خلال ذلك تبحث عن ذلك الشيخ الخائن .

وقال له مسلمة :

— وعليك يا محمد أن تتعرف أحوالهم وتأتينا بأخبارهم .

— حبا وكرامة يا ابن الخليفة .

— ٤٣ —

قال محمد أخو ألوف لأرمانوس :

ـــ أنا أخو ألوف الغادرة الخائنة ، وعندى بشرى الملك ، هذان رأسا الصحصاح ومسلمة ، وقد ماتا من السم فى الطعام ، كما مات بالسم كثير من جيش العرب وقواده ، وقد اضطرب الباقون ، واختلف بعضهم مع بعض ، إذ يرى بعضهم أن يرحلوا ، ويصر الآخرون على البقاء .

وكان « شماس » بحضرة الملك ، فلما سمع ذلك الكلام فرح ، اذ ظن أن خطته قد نجحت ، وقال لأرمانوس مزهوا :

ـــ أما قلت لك يا مولاى ؟ هذه أكثر الفرص ملاءمة للهجوم على العرب وهزيمتهم وطردهم .

وتردد أرمانوس ثم أمر أخيرا بإعداد العدة لمهاجمة الجيش العربى .

ولما رأى أخو ألوف أن مهمته قد انتهت تسلل ليلا من القيسارية الى معسكر العرب ، وأخبرهم بما رأى وما سمع ، وقال لهم أن الناس فى المدينة قد ساءت أحوالهم الى حد أن أكل بعضهم القطط والكلاب . وكثير منهم يموتون من الجوع ..

وقال أخو ألوف لمسلمة :

ـــ اذا هاجمتم الآن القيسارية فلن تجدوا مقاومة تذكر ، فأهلها على تلك

الحال ، والجنود ساخطون ، وأرمانوس نفسه مضطرب لا يقر له قرار .

وقال قواد العرب :

ـــ لقد طال حصارنا لهذه المدينة أكثر مما ينبغى ، ولابد أن نحسم الأمر ونضع حدا لهذا الحصار .

وقال الصحصاح :

ـــ نعم لابد من ذلك ، وقد غدر بنا أرمانوس بعد ماجاء مسالما . وأراد أن يقتلنا بالسم .

واستقر الرأى على مهاجمة القيسارية ليلا ..

- ٤٤ -

وضع سلم كبير على سور المدينة ، وتقدم « مدلاج » وصعد عليه وهو يقول :

— انى قد وهبت نفسى لله .

ثم التفت الى من وراءه من الرجال ، وقال لهم :

— إذا سمعتمونى أكبر فاتبعونى .

ونظر مدلاج من فوق السور الى داخل المدينة ، فلم يجد أحدا مستيقظا ، فعلا صوته بالتكبير واندفع الرجال فوق السلم متزاحمين حتى كان الصحصاح يقول لهم : مهلا حتى لاينكسر ..

ولم تشرق الشمس حتى كان الجيش العربى يملأ مدينة القيسارية ، وقد قتل من تصدى للقتال ، وفر من فر ، وأمر الصحصاح بأحضار الطعام وتوزيعه على الجائعين من أهل المدينة ،

وكانت فرق الجيش العربى تتعقب الهاربين من القيسارية ، حتى لايتجمعوا خارجها ويعودوا للقتال ، وبينما هم كذلك اذ رأوا رجلا يركب بغلا ويسوق آخر مثقلا بأحماله وهو يستحثه على الإسراع فى السير ،. فأحاطوا به ؛ وقبضوا عليه وأخذوا البغل بما عليه .

قدم الرجل وما معه إلى الصحصاح ، فكانت دهشة الصحصاح عظيمة ، وصاح به

— شماس ... ؟ العابد الزاهد الورع التقى !

وارتعد شماس وتلجلج لسانه ، وقال الصحصاح :

ــ ماذا معك ؟ ماذا كنت تحمل على البغل ؟

واستمر شماس يرتعد ويتلجلج ، ويردد :

ــ الـ ... عفو ... يا ... أمير العرب .

وفحصوا أحمال البغل فوجدوا فيها تاجين من تيجان أرمانوس مرصعين بالجواهر ودروعاً من الذهب ، وأشياء أخرى ثمينة .

قال الصحصاح لشماس ساخرا :

ــ ماغلا ثمنه وخف حمله ... قل لى ... أين أرمانوس ؟ هل حلت به بركتك وأخذت جواهره وأمتعته ؟؟

ــ نعم يا مولاى ... وضعت له السم فى الشراب وأرحتكم منه .

ــ بقى أن نستريح منك ومن ... سمك .

والتفت الصحصاح إلى رجاله قائلا :

ــ خذوه ... لا أريد أن أرى وجهه ... اقتلوه .

* * *

كان أهل القيسارية مذهولين حائرين ، يتجاذبهم الخوف والرجاء ، تتناثر بينهم الأقاويل والإشاعات ، ولكن صوت المنادى بعث فى قلوبهم الطمأنينة وهو يردد متمهلا عاليا :

يا أهل البلد ، أمير العرب يقول لكم : انكم آمنون على أرواحكم وأموالكم وأطفالكم ونسائكم ، ودينكم وعبادتكم ، تذهبون إلى أعمالكم وكنائسكم ، وسيوزع عليكم الطعام سبعة أيام ، حتى تستردوا قواكم وتؤدوا أعمالكم فى أمن وسلام ، واعلموا يا أهل القيسارية أن العرب أحباء لكم مادمتم مسالمين ، لهم ولكم من الحق مالهم ، وعليكم من الواجب ماعليهم . ولا فرق بين عربى ورومى الا بعمله والله يرعاكم ، وعليكم السلام .

وشرع الصحصاح في بناء مسجد بالمدينة . فاشتروا مواد البناء ، واحضروا البنائين والعمال ، وأعطوهم اجورهم بسخاء ، ولما تم بناؤه ، افتتح بصلاة الجمعة فية وخطب مسلمة خطبة الجمعة وأم الناس ، ودعا بدوام النصر والسلام .

وأخذ الجيش العربي يستعد للرحيل ، بعد أن عين عبدالله أبو ألوف واليا على القيسارية وما يتبعها من القرى والبلاد . وتركت بها حامية من العرب الذين رغبوا فى الإقامة هناك ، ومن الروم المجاهدين الذى دخلوا فى الاسلام .

ودعا مسلمة « مدلاج » لخضر ، وتلطف معه مسلمة وقال له :

ــ يامدلاج ، كانت بخطوس تريد أن تجعلك مكان أرمانوس .

ــ أتذكر يا ابن أمير المؤمنين ؟

ــ قد جعلناك قائداً على حامية القيسارية أن كنت تريد البقاء .

ــ لقد وهبت نفسى لله فى كل مكان .

ــ وفقك الله . ونصر بك العرب والإسلام .

وأقلعت السفن من شواطىء الروم ، تحمل جيش العرب وما غنمه فى المعارك وسارت ــ باسم الله مجراها ومرساها ــ نحو الشاطىء العربى .

كتب للمؤلف

(١) غرام الأدباء : دراسة ... دار المعارف (اقرأ) — ١٩٥٦ .

(٢) الست عليه : مجموعة قصص ... ط ١ — المؤسسة روز اليوسف (الكتاب الذهبي) — ١٩٦٠ .

ط ٢ — الدار القومية (الكتاب الماسى) — ١٩٦٥ .

(٣) كتابنا فى طفولتهم : دراسة ... الدار القومية (كتب ثقافية) — ١٩٦٠ .

(٤) حواديت عربية — الطير الحذارى : قصص شعبية ... دار المعارف — ١٩٦٠ .

(٥) العرب فى قصصهم : دراسة ... الدار القومية (اخترنا للطالب) — ١٩٦١ .

(٦) قصص أعجبتنى : نقد ... دار الفكر العربى (الألف كتاب) — ١٩٦١ .

(٧) مديحة : مجموعة قصص ... الدار القومية (الكتاب الماسى) — ١٩٦٢ .

(٨) صحفيون معاصرون : دراسه ... دار الكرنك — ١٩٦٤ .

(٩) كتب فى الميزان : نقد ... المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة — ١٩٦٤ .

(١٠) حواديت عربية — أم السعد : قصص شعبية ... دار المعارف — ١٩٦٤ .

(١١) حمزة العرب : رواية شعبية ... إدارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى — ١٩٦٤ . طبعة خاصة للقوات المسلحة .

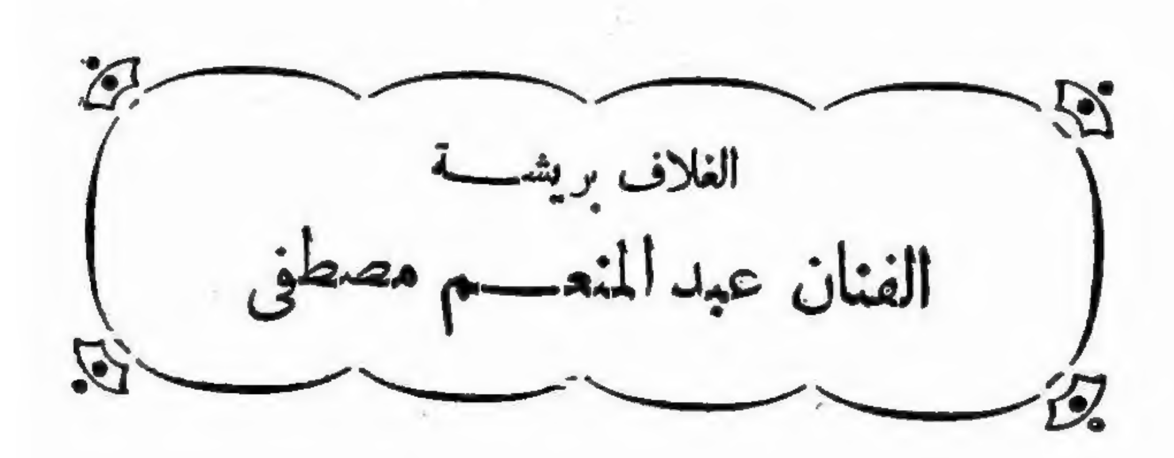
وزارة التربية والتعليم — ١٩٦٥ . طبعة خاصة للمدارس .

الدار القومية للطباعة والنشر — ١٩٦٦ طبعة عامة .

(١٢) القصة القصيرة فى مصر : دراسة تاريخية ... الدار القومية (المكتبة العربية) ١٩٦٦ .

(١٣) محمد تيمور : دراسة ... الدار المصرية للتأليف — ١٩٦٦ .

(١٤) الواقعية فى الأدب : وزارة الثقافة العراقية — ١٩٦٦ .


الغلاف بريشة
الفنان عبد المنعم مصطفى



صدر عن إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة

مطبعة التحرير



صدر عن

إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة

أكتوبر ١٩٦٦

مطبعة التحرير
٨ حارة فايد ـ عابدين